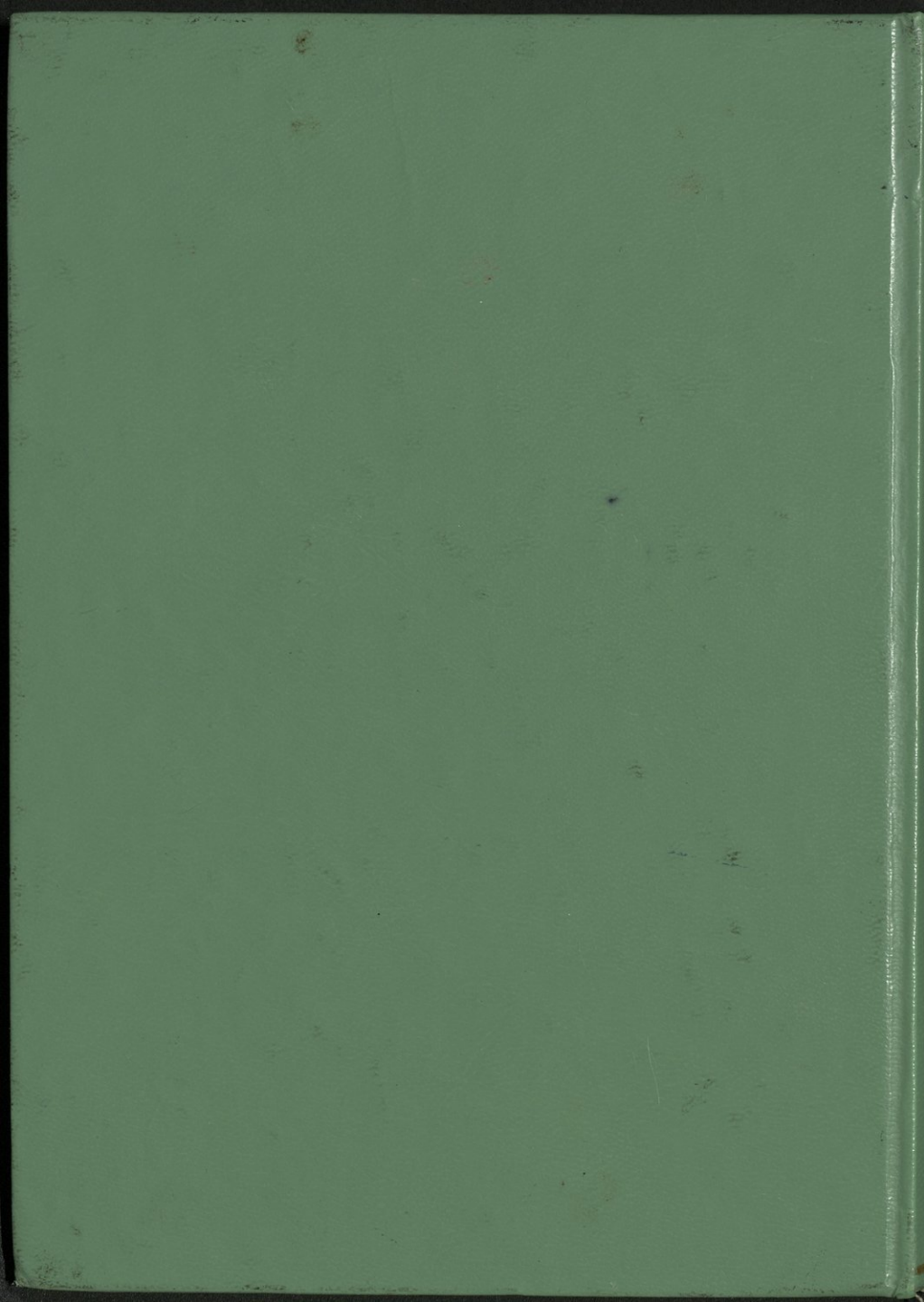
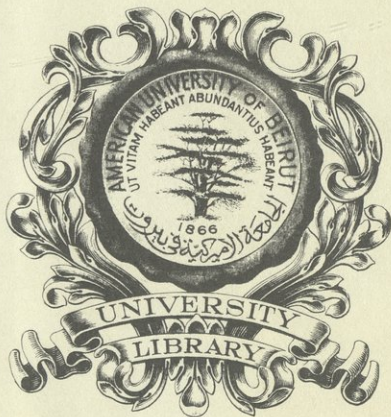
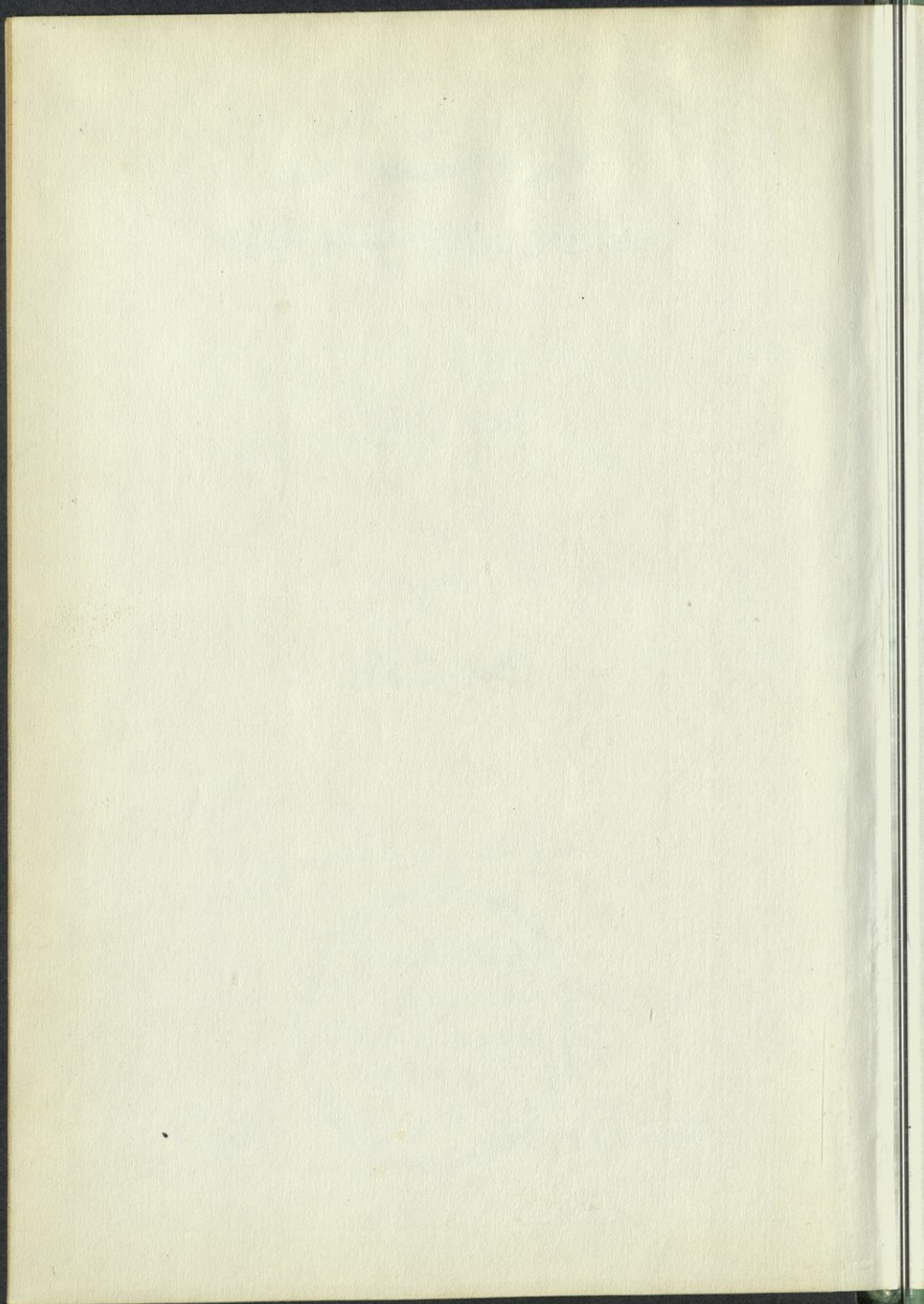


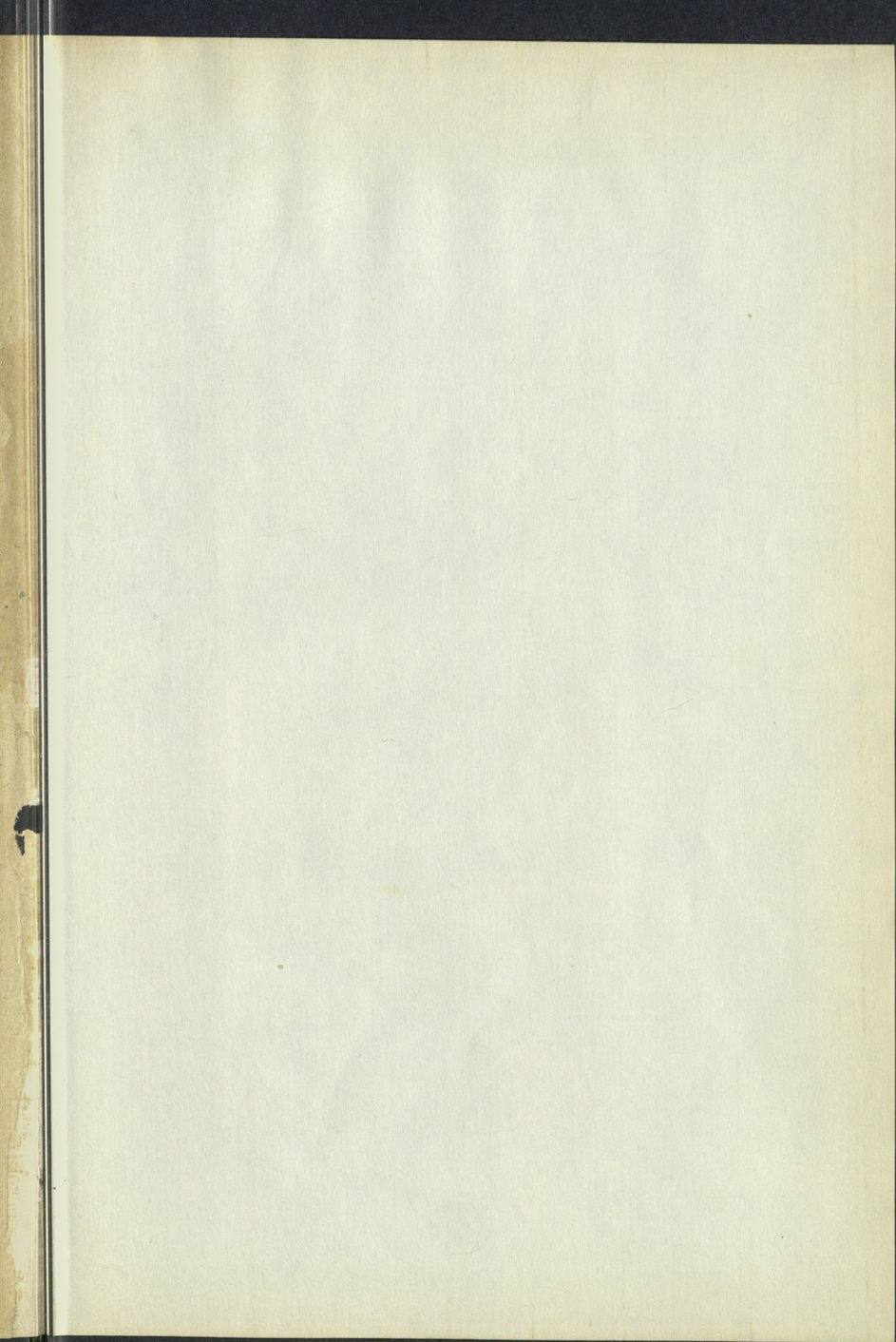


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







962
R95mA
C.1

مصر والشراكسة

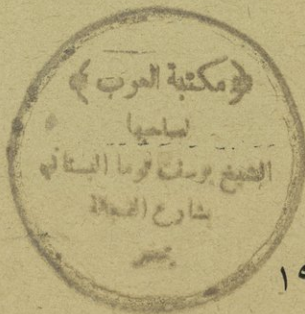
صفحات من تاريخ مصر الحديث

بحث وتحقيق

بقلم

إبراهيم رشدي

(جميع الحقوق محفوظة للمؤلف)



العدد ٢٥

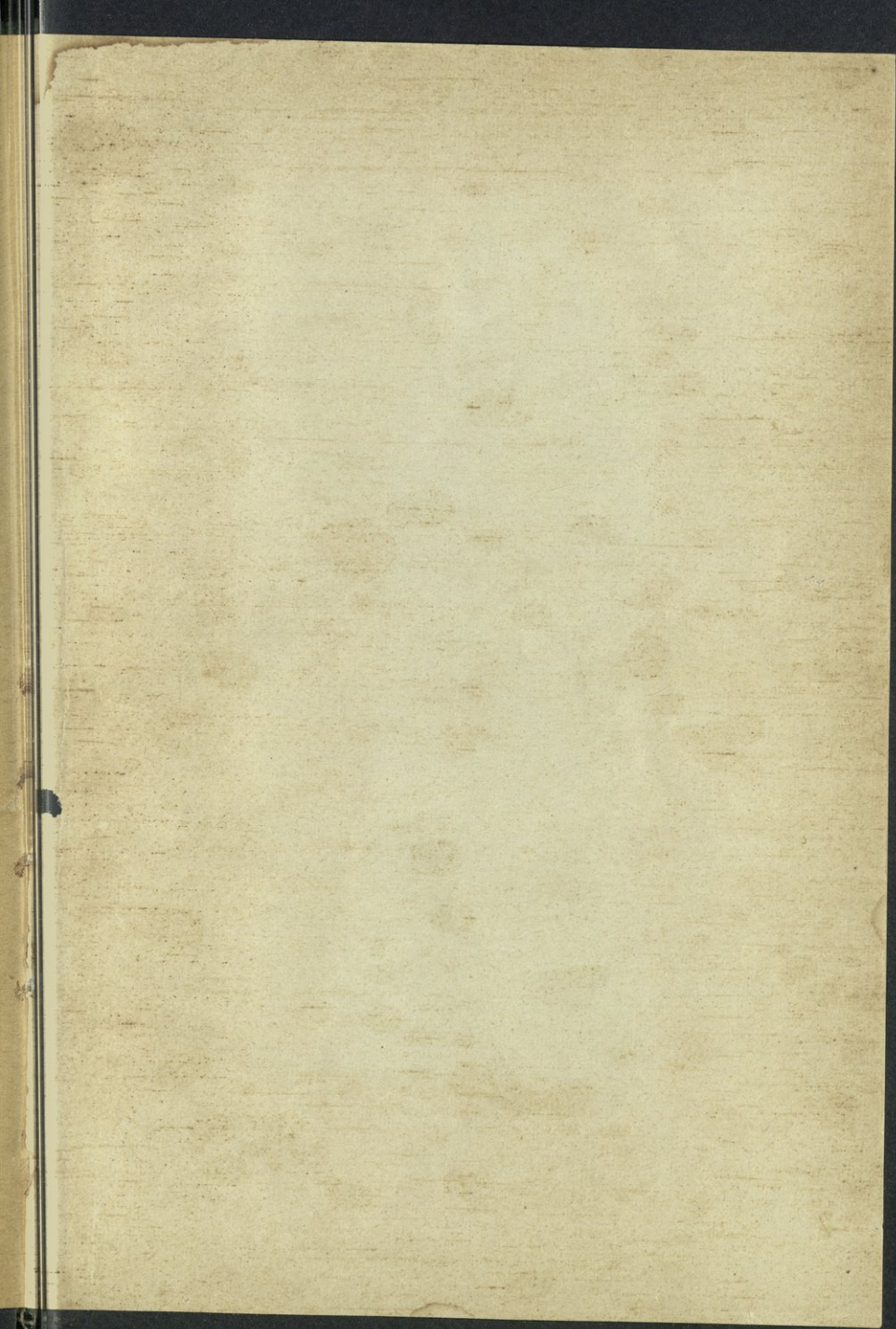
القاهرة ١٩٤٨





شركسية بالملابس الوطنية

(أنظر صفحة ١٢)



أهم مراجع الكتاب

١ — المصادر العربية :

- بدائع الزهور في وقائع الدهور — لأبي البركات محمد بن أحمد بن إياس .
 صبح الأعشى — للقلقشندي .
 شذرات الذهب في أخبار من ذهب — لابن العماد الحنبلي .
 عجائب الآثار في التراجم والأخبار — للشيخ عبد الرحمن الجبرتي .
 نهاية الأرب في فنون الأدب — للنويري .
 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — لابن تغري بردي .
 الخطاط — للمقريزي .
 تاريخ مصر الحديث } للمرحوم جورجى زيدان .
 تاريخ التمدن الاسلامى }
 مصر في العصور الوسطى — للدكتور على ابراهيم حسن .
- ### ٢ — المصادر الإفرنجية :
-

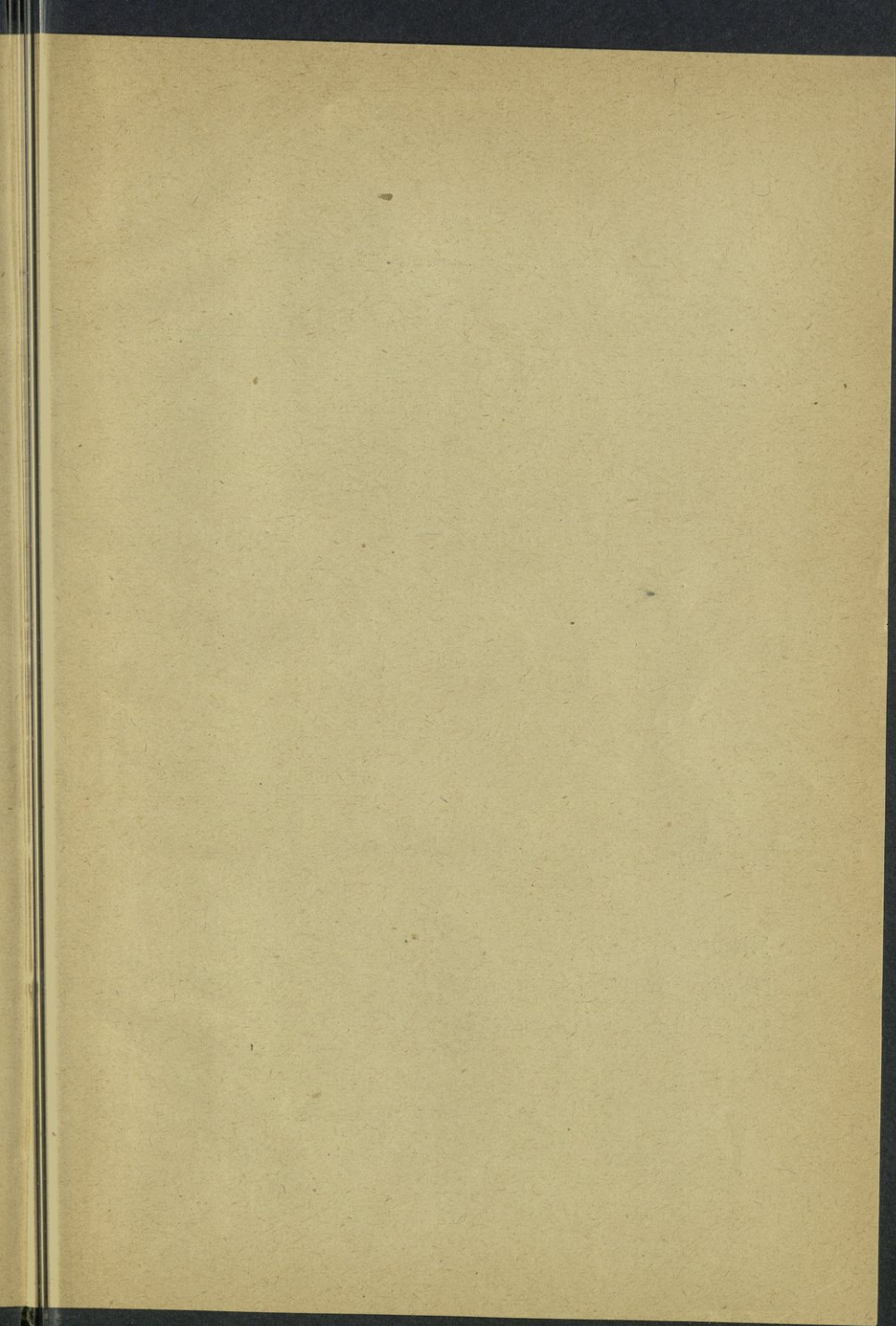
The Memluke or Slave Dynasty of Egypt—

Sir William Muir.

History of Egypt in the Middle Ages — Lane-Poole.

Histoire de la Nation Egyptienne—Gabriel Hanotaux.

La Civilization Caucasienne—Arthur Byhan.



محتويات الكتاب

صفحة

١

المقدمة

٣

القسم الأول — من هم الشراكسة

٥

الفصل الأول — من هم الشراكسة ؟

أصلهم — صفاتهم الخلقية والاجتماعية — لباسهم — دينهم
ومعتقداتهم القديمة — قبائلهم ونظامهم الاجتماعي — مدينتهم القديمة.

٢٠

الفصل الثاني — تاريخهم السياسي القديم

تمهيد — حروبهم مع التتر — علاقاتهم بروسيا — حروبهم مع
روسيا — الهجرة .

٣١

القسم الثاني — قيام الدولة الشركسية في مصر

٣٣

الفصل الأول — كيف جاء الشراكسة إلى مصر ؟

٤٩

الفصل الثاني — قيام الدولة الشركسية في مصر

نظرة إلى وراء — الظاهر برقوق — الناصر فرج بن برقوق —
المؤيد شيخ المحمودى — الظاهر أبو الفتح ططر وولده محمد —
الأشرف برسباى — الظاهر جقمق — الأشرف يتال —
الأشرف قايتباى — الظاهر قانصوه بن قانصوه — الأشرف
قانصوه الغورى — الأشرف طومان باى — أعم الآثار التى شيدت
في عصر دولة الشراكسة (جدول) .

١٠٩

الفصل الثالث — الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

في عصر الدولة الشركسية مع تراجيح مختصرة لأشهر رجال هذا العصر .
السلطان — الوزراء — الولاة والحكام — القضاة —
الجيش — أشهر القادة — المالية — أهم مناصب الدولة —
أشهر رجال الإدارة — الحياة الاجتماعية والثقافية — الآداب
العامة — حركة الإنشاء والتعمير — كلمة حق .

١٣٩ القسم الثالث — من الفتح العثماني إلى يومنا هذا

١٤١ الفصل الأول — مصر تحت الاحتلال العثماني

تمهيد — نظام الحكم الجديد — الباشا — استئثار البكوات
بالسلطة — سلطة البكوات — النظام القضائي — العلوم والآداب
— مسئولية البكوات .

١٥١ الفصل الثاني — قاسم وإسماعيل

١٥٥ الفصل الثالث — عثمان بك — إبراهيم بك — رضوان بك

١٥٨ الفصل الرابع — علي بك الكبير

من شيخ البلد إلى سلطان مصر — إعلان الاستقلال — أعماله وفتوحاته
— خيانة محمد بك أبي الذهب — الزحف على القاهرة وخيانات
جديدة — نهاية البطل — بعض مآثره .

١٧٠ الفصل الخامس — أبو الذهب — مراد بك — إبراهيم بك

أبو الذهب — مراد بك — إبراهيم بك — محاربتهم مع العثمانيين
— حالة البلاد في هذا العصر — التجارة والحمارك — الزراعة والصناعة
— التقسيمات الإدارية .

١٧٧ الفصل السادس — حملة نابليون على مصر ونتائجها

الحملة الفرنسية وحوادثها — ثورة في القاهرة — السيدة نفيسة
مراد — سير الحوادث — حملة بوناپرت على سوريا — الحملة
العثمانية الانجليزية — نهاية الحملة الفرنسية ونتائجها .

١٩٢ الفصل السابع — نهاية الشراكسة — مذبحه القلعة

من انسحاب الفرنسيين إلى ولاية محمد علي — محمد علي باشا —
حملة فرينزر — مذبحه القلعة .

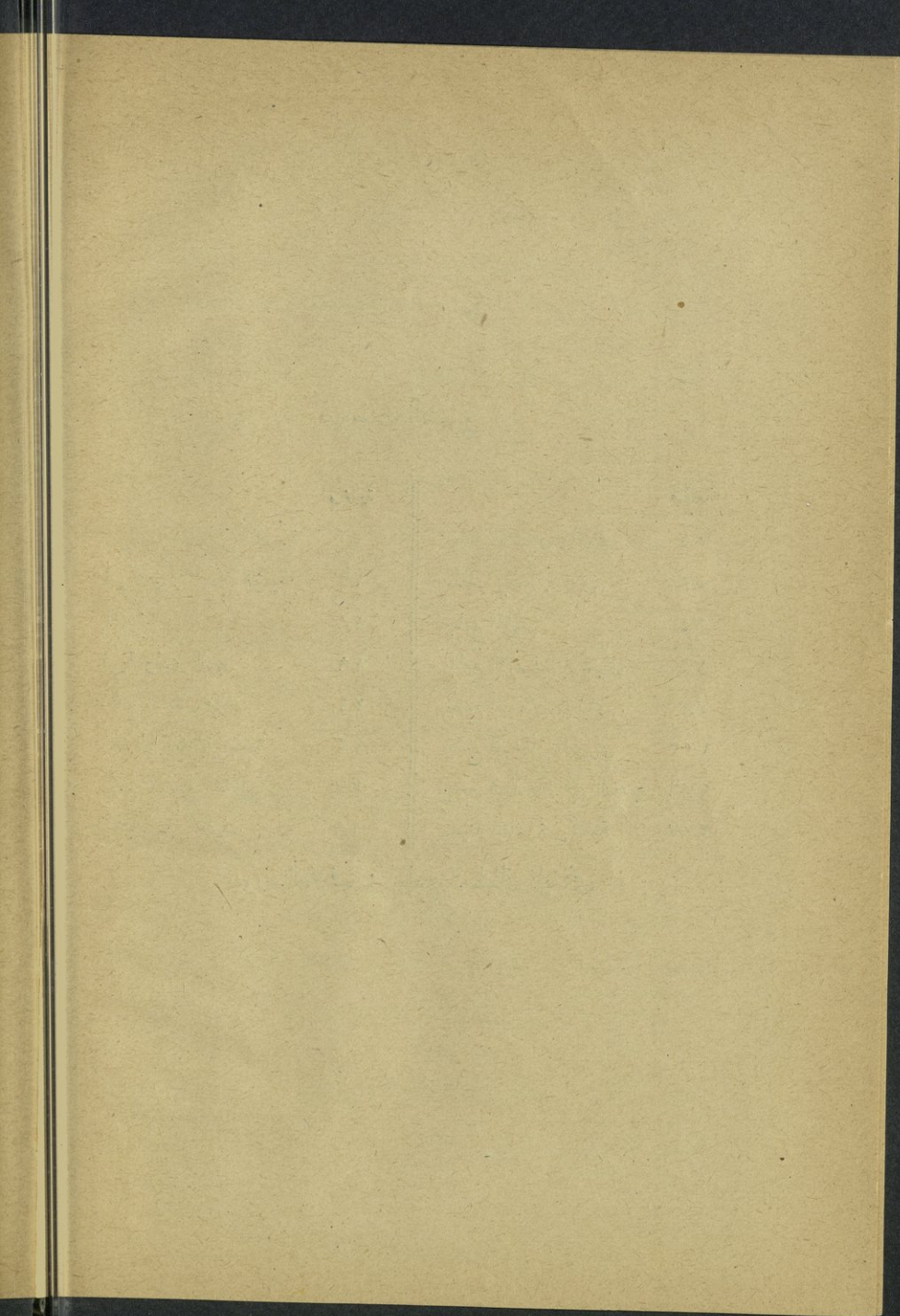
٢٠٨ الفصل الثامن — الحوادث العراقية وما تخللها

٢١٢ الفصل التاسع — ختام

فهرست الصور

صفحة		صفحة	
٥٥	جامع السلطان برقوق	>	شركسية بالملابس القومية
٥٨	سقف جامع برقوق	١٢	شركسى بملابسه القومية
٦٤	جامع المؤيد	١٨	الزواج
٧٦	جامع الأشرف برسباى	١٩	قرية وادى السير
٨٣	جامع السلطان قايتباى	٢١	الحاج سلطان مراد
١٠٣	جامع السلطان الغورى	٢٦	الجنرال ميخائيل باشا
١٧٦	جامع محمد بك أبى الذهب	٢٧	الإمام الشيخ شامل
٢٠٧	مدينة القاهرة والقنعة	٢٩	رشيد بك شالوف

صورة الغلاف : جامع السلطان قايتباى



هذا الكتاب

لعله لم يظلم عصر من عصور التاريخ كما ظلم عصر الدولة الشريكية في مصر . ولعله لم يظلم أحد كما ظلم ملوكها . فامتلات كتب المؤرخين بالمطاعن والاتهامات ، وتبارى الكتاب في تضخيم مساوئ ذلك العصر وغيوبه بنون ترو أو إقامة أى وزن للعلم والحقيقة . فكانت نتيجة ذلك التخبط والتجنى أن رسموا لعصر الشرا كسة في مصر صورة قائمة ، وجعلوه أظلم العصور التي مرت بالبلاد .

والباحث المدقق المنصف ، يستطيع أن يدرك بغير كبير عناء ، أن كثيراً من الكتابات عن الشرا كسة وملوكهم قد صدرت عن هوى ، ورغبة في إشباع شهوة ، ولم تكن كلها وليدة البحث العلمى الصادق المنزه عن الأغراض . إذ تجد تعمد الإيذاء وشهوة السب واضحين في تلك المؤلفات . وفي الوقت الذى أنصف فيه بعض مؤرخى الأفرنج هؤلاء الملوك العظام ، ودافعوا عن بعض تصرفاتهم ، لانجد أحداً من كتابنا الأفاضل من تكون قد أخذته الغيرة على العلم والحقيقة ، يحاول تبرئة أولئك الأسياد مما لصق بهم ، واتهموا به ظلماً وعدواناً ...

إلا أنه لا يفوتنى هنا ، وأنا أقرر ذلك ، أن أنوه بجهود اثنين من المؤلفين المصريين الصادقة ، في هذا الصدد . أولها سعادة الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام بك ، في كتابه « مجالس السلطان الغورى » ،

وثانيهما حضرة الأستاذ الفاضل محمود رزق سليم المدرس بكلية اللغة العربية ، الذى يقول فى مقدمة كتابه « عصر سلاطين المماليك وتواجه العالمى والأدى » إنه قد هاله « ما ناله هذا العصر من صد وجفاء ، وما رعى به حيناً من أنه عصر ظلمة وتأخر وانحطاط وتقليد ، مع أنه جليل الخطر ، عظيم الأثر »

إزاء كل ذلك ، لم يكن هناك بد من إصدار مؤلف نزيه يفند مزاعم أولئك المتجنين ، ويقرع الحججة بالحجة ، ويرجع الفضل إلى أهله ، فعوات على كتابة هذا الكتاب ، وأنا أدري أى موضوع شائك قد اخترته ، وأى مجهود يتطلبنى إزالة الوصمات والالتمامات التى لحقت بذلك العصر وملوكه . ولكن ، كل شيء يهون فى سبيل العلم ونشر الحقيقة ، وإنصاف قوم وفروا وقتهم وجهدهم لخدمة بلادهم ، ونشر العلم والمعارف والعمران فيها ، وبذلوا دمهم رخيصة فى سبيل نشر لوائها ، وإعلاء كلمتها ، وتثبيت سلطانها .

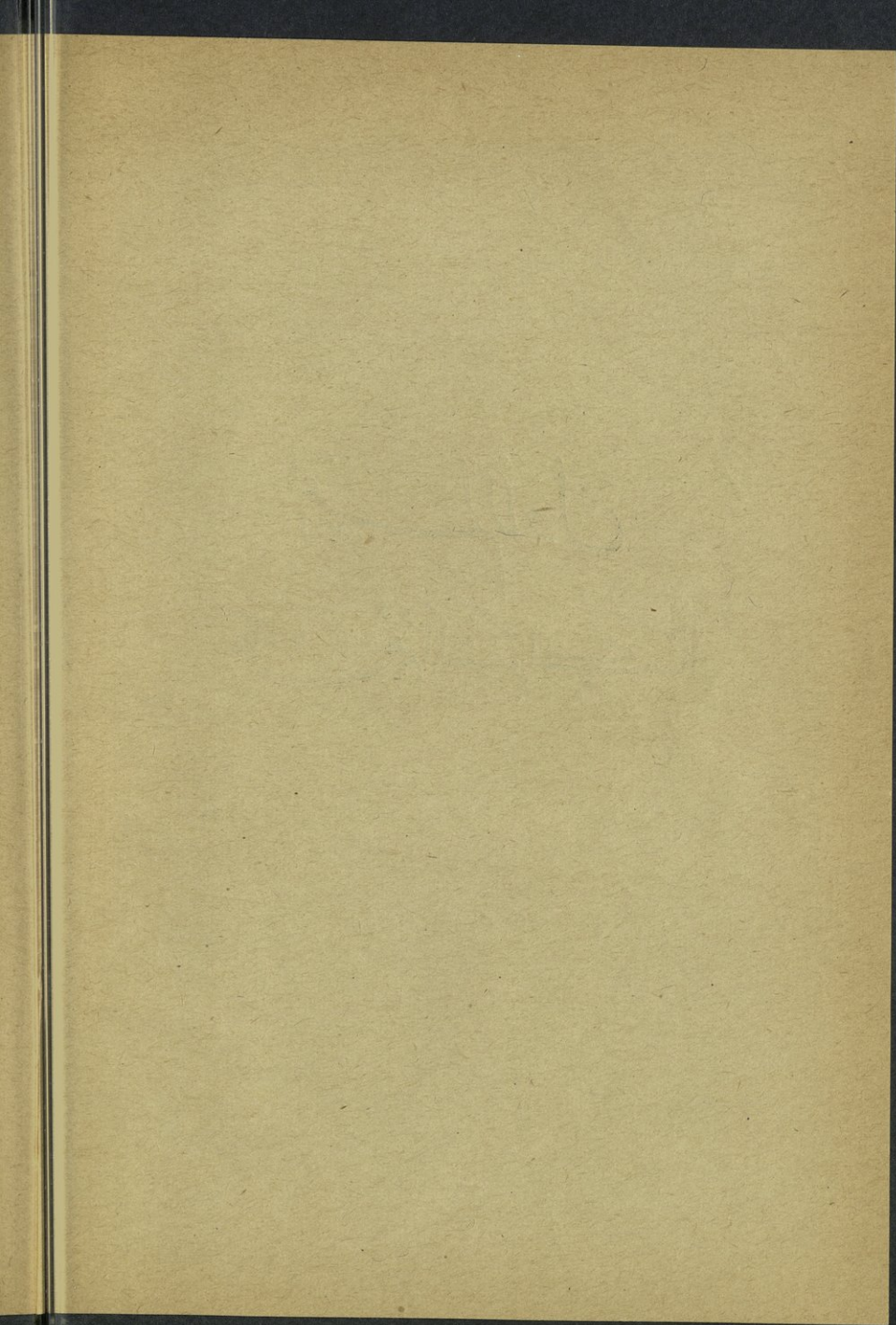
وقد رأيت ، تسكلمة للبحث ، أن أصدر الكتاب بفصل يتحدث عن الشعب الذى انحدر من أصلا به أولئك الملوك ، وشىء عن منبته ، ومدنيته الأصلية ، وعاداته وأخلاقه ، وتاريخه القديم ، لأن ذلك من شأنه أن يقرب إلى أذهاننا نفهم بعض أعمالهم وتصرفاتهم ، ودراسة تاريخ ملوكهم فى مصر .
وبالله المستعان .

ر اسم ر شى

القاهرة : أول نوفمبر سنة ١٩٤٧

القسم الأول

من هم الشراكسة



الفصل الأول

من هم الشراكسة؟

أصلهم :

الشراكسة منب العنصر القوقازى الأبيض ، ومنشؤهم بلاد القوقاز ، فى البلاد المعروفة باسمهم (١) . وهى بلاد جبلية باردة ، تغطيها الثلوج أكثر شهور الشتاء ، وفى بعض المناطق أكثر شهور السنة . وفيها السهول الخصبة والمروج الخضراء الياض ، وفيها الأحراج الكثيفة التى يصعب فى بعض الأحيان اختراقها لشدة كثافتها . والخلاصة أنها من أجمل بقاع الأرض وأخصبها ، وهواؤها صحى جميل ، ومن ذلك كانت أجسام الشراكسة والشعوب القوقازية بوجه عام كاملة النمو ، رياضية التركيب ، جميلة المنظر .

والشراكسة من الشعوب العريقة فى القدم . وقد جاء ذكرهم فى كتب اليونان القدماء بأسماء مختلفة مثل سر كس وكر كس وكر كس .

(١) يطلق الشراكسة على أنفسهم لفظة الأديغة — بالعين المخففة — ومعناها الإنسان الكامل . وأما اسمهم الذى عرفوا به بين الشعوب ، أى الشراكسة أو الجراكسة ، أو الشر كس ، فقد اختلف المؤرخون فى أصله . فمن قائل إن الذى أطلقه عليهم هم التتر ، وقال غيرهم الروس ، وقال آخرون الفرس والعرب . ولهم فى ذلك تخريجات شتى ، ليس هذا مجال سردها .

وكانت لهم معاملات تجارية مع الفراعنة ، واليونانيين القدماء ، والرومان .

وقد اختلف المؤرخون والرواة في أصلهم من حيث تقسيم الأجناس البشرية . فمن قائل إنهم من أنسال الحثيين القدماء ، الذين أنشأوا امبراطورية مترامية الأطراف في آسيا الصغرى . وقال غيرهم إنهم من سلالة السومريين ، وأرجع البعض الآخر أصولهم إلى قبائل الألمان القوطية . وقد رد الأستاذ جورجى زيدان أصولهم إلى قبائل القرغز التتية ، في سيبيريا^(١) . ولكنه لم يقيم بعد دليل على يقطع بصحة إحدى هذه النظريات أو سواها .

وفى رأى المؤلف أن مثل هذا البحث يقتصينا سنوات من أعمال الحفر والتنقيب والدراسة العلمية فى بلاد القوقاز نفسها ، قبل أن يستطيع أحد أن يقطع برأى ما فى هذا الموضوع . ولكن ما أجمع عليه علماء اللغات والآثار الذين زاروا بلاد الشراكسة ونقبوا فى آثارهم فى القرنين الثامن والتاسع عشر مثل الأستاذ جورج موتادون والأستاذ آرثر بيهان^(٢) والرحالة فرشفيلد ، أن الشراكسة

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان — جزء ٢

(٢) قسم البرفسور آرثر بيهان الألمانى فى كتابه «مدنية القوقاز» المطبوع عام ١٩٣٨ الشعوب القوقازية من حيث الأجناس والسلالات إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، وهى :

١ — الجنس القوقازى الأبيض ، ومنبت هذا الجنس بلاد القوقاز نفسها ، =

من الشعوب القوقازية العريقة ، وسكنناهم في بلادهم الحالية يرجع إلى قرون عديدة قبل الميلاد ، وأنهم من الشعوب الآرية (الاندو أوروبية) . وهم يستدلون على هذا التعليل بفحص البشرة والعظام ، وتحليل اللغة الشركسية ، ومن بعض الآثار التي وجدوها في بلادهم ويرجع تاريخها إلى ما قبل المسيح بقرون طويلة (٢) .

صفاتهم الخلقية والاجتماعية :

لعل أهم ما تحلى به الشراكسة قديماً وحديثاً الشجاعة المنقطعة النظير ، والكرم المتناهى . ومن أمثالهم القديمة « دار لاضيف فيها لأبورك فيها » . وهم قوم صادقون ، صريحون إلى أبعد حدود الصراحة ، لا يعرف الكذب ولا الرياء سبيلاً إلى نفوسهم . وقد أجمع الرحالة الذين زاروا بلادهم على أنهم من أرقى الشعوب

= ومنه الشراكسة ، والكرج ، والأساتين (القوشعة) .

٢ — الجنس الإندو — أوربي ومنته شمالى الهند ، ومنه الشيشن واللازجي والأوار .

٣ — الجنس التترى أو التركى ، ومنه : الداغستانيون ، والأذربيجانيون ، والتتر ، والقالموق ، والنوغواى ، وغيرهم . ومنبت هذه السلالة بلاد التركستان وسهول آسيا الوسطى والشرقية .

(٢) يستعمل الشراكسة المقيمون في روسيا الآن الحروف اللاتينية مع بعض التعديل ، وقد وضعها أصلاً بنش نامتوق ، وكان أول استعمالها عام ١٩٣١ . وكانوا قبل ذلك التاريخ يكتبون بالحروف العربية ، أو الروسية . كما أن اللغة الشركسية تدرس الآن رسمياً بالمدارس ، ويتلقى بها الطلبة دروسهم ، حتى سن العاشرة .

تقدماً وحضارة . وللرأة عندهم منزلة رفيعة . فلا تكلف عملاً شاقاً ولا يصح ارتكاب جريمة في حضرة آنسة أو سيدة . كما أنه لو التجأ قاتل أو فار إلى سيدة فهو آمن مادام تحت سقف بيتها .

ويقوم المجتمع الشركى على احترام الأكبر سناً . فالوالدون تحب لهم الطاعة العمياء . وقد بلغ من احترام الشرا كسة لكبرائهم أنهم كانوا يقفون إجلالاً إذا ماذكر اسم أحدهم حتى ولو لم يكن جاضراً . وإذا دخل شيخ مسن على أمير وجب على الأمير أن يقف له احتراماً ، ولا يجلس الأمير إلا إذا أذن له الشيخ بالجلوس .

والشرا كسة مغرمون بنظافة بيوتهم وترتيبها وتحليتها بالنقوش والأسلحة والظنافس . وقد قال عنهم الرحالة فرشفيلد في كتابه « رحلة القوقاز » إنهم من أنظف الشعوب التي وقعت عليها عيناه ، ومنازلهم في حالة دائمة من النظافة والترتيب .

وقد اشتهرت نساء الشرا كسة منذ القدم بالجمال المتناهى ، وصفاء البشرة ، وحسن القوام . ولذلك كن قبلة كل راغب في الزواج من الشعوب المجاورة ، وخصوصاً تركيا . كما اشتهر رجالهم بوسامة الطلعة والذكاء الفطرى^(١) .

وبالرغم من سماح الدين الإسلامى الذى يدينون به بتعدد الزوجات

(١) تاريخ مصر الحديث للأستاذ جورجي زيدان جزء ٢ .

والطلاق ، إلا أن الشراكسة لم يبيحوا لأنفسهم استعمال هاتين الحريتين . فحددوا الزواج بواحدة ولم يلجأوا إلى الطلاق إلا في الحالات القصوى النادرة .

ويتخير الشراكسة زوجاتهم عادة بعيداً عن ذوى قرباهم . فهم لا يتزوجون بنات الخؤولة أو العمومة إلا في النادر جداً ، وهم يعتبرون أولئك بمثابة أخوات لهم ومن عائلة واحدة .

وتبيح التقاليد الشركسية للفتاة أن تخالط من تشاء من الشبان الأكفاء ، وكانت لها «مضافة» خاصة تستقبل فيها زوارها . فإذا ما وقع خيارها على أحد الشبان ، تقدم الشاب لخطوبتها من والدها . وتجري مراسيم العرس بعد ذلك على الطريقة الإسلامية ، وتقام الأفراح مدة سبعة أيام ، يكون العريس خلالها ضيفاً على أحد أصدقائه .

ولا تسمح التقاليد الشركسية مطلقاً بسكنى الصهر مع الزوجة والدها في بيت واحد . كما أن الزوج لا يدخل على زوجته نهراً ، ولا يتناولان طعامهما معاً في حالة وجود أحد والديه بالمنزل ، إذ كان يتناوله حينئذ مع ضيوفه أو منفرداً في غرفة الاستقبال .

وكان من عادة الشراكسة أنه عندما يولد لأحد هم مولود ، يعهدون في أمر رضاعته وتربيته لإحدى العائلات ، التي تتولى كافة شؤونه حتى بلوغه التاسعة أو العاشرة من عمره . ويعاد الولد بعد هذه السن

إلى أهله في مظاهر الترحيب . وتبذل للعائلة التي تربي عندها الطفل
أجزل الهدايا . وهذه العادة كانت متبعة بنوع خاص عند الأعيان
والنبلاء .

ولا يسمح الأولاد عند الشرا كمة بأن يجلسوا في حضرة والديهم
ولا أن يظهرُوا أمامهم من غير داع أو سبب ، كما كان يحرم على
الوالد ملاطفة ابنه وتقبيله ، خصوصاً إذا كان ذلك في حضرة الجد
أو الجدة . ولا يتنادى الولد والده بيا والدي أو ماشابه ذلك ، وإنما
يكون هذا اللقب من حق الجد إذا كان موجوداً ، باعتباره رأس
العائلة ، والمهيمن على شؤونها . وأما الزوجة ، فكانت إذا أرادت
أن تشير إلى زوجها أثناء الحديث ، لم تذكر اسمه ، بل أشارت إليه
بقولها : أخوكم أو صهركم أو نسيبكم . كذلك الزوج لا يذكّر زوجته
باسمها بل يشير إليها : باختكم .

ومن مفاخرهم القديمة صيانة الأعراس والمحافظة على الشرف
والكرامة ، ولهم في ذلك قول مأثور : «الأرواح رخيصة في سبيل
الشرف» .

وكانت البنت قبل زواجها تعتبر ربحانة الدار وقرّة عيون
والديها . وإذا كان لها شقيق فكان الواجب يفرض عليه أن يتكفل
هو بنفسه باستحضار كل ما يلزمها من ملابس وأدوات الموسيقى

والزينة ، ويكون دائماً في خدمتها ويعتبر ذلك شرفاً عظيماً له (١).
ومن عاداتهم الجميلة التي تتمجلى فيها شدة احترامهم لنسائهم أنه
إذا صادف مرور فارس مهما علت درجته وكبر مقامه في طريق
ورأى سيدة سائرة فعليه أن يترجل ويسير بجانبها ماشياً حتى تأذن له
باستئناف الركوب . وإذا وقع ذلك خارج القرية ، فيستعين على
الفارس أن يرافق السيدة حتى يوصلها بأمان إلى مداخل القرية .
ولو رأى رجل امرأة أو أمة أمام دارها تكسر خطباً (مثلاً)
فكان يتحتم عليه أن يقوم بالعمل مكانها .
ولم يسمع عن الشراكسة أن رجلاً ضرب امرأة أو سبها بألفاظ
قاسية قط .

ومكان السيدات في المجالس كان مقدماً دائماً على الرجال ،
ولا يجلس الرجل إلا إذا أذنت له بذلك السيدة أو الآنسة (٢).

لباسهم :

وأما لباسهم فقد اشتهر بين كافة شعوب القوقاز حتى أخذه عنهم

(١) تاريخ القوقاز للمرحوم عزت باشا الجركسى أمير اللواء بالجيش العثمانى
سابقاً . ترجمه إلى العربية المرحوم عبد الحميد بك غالب ، وطبعه بالقاهرة عام ١٩٤٠ .
قارن هذا الوصف بما كان جارياً في معاملة النساء والبنات عند بعض الشعوب
الشرقية والغربية !

(٢) جاءت هذه المعلومات في كتاب «تاريخ القوقاز» المذكور ، وقد حققناها
وتأكدنا من صحتها بمخذاقيرها .



أكثرها ، ويمتاز بطابعه الحربي
الرزين . ويتألف من بنطلون
(صاكوه) من الصوف مفتوح
من الأمام ، يلبس تحته قميص ذو
ياقة مرتفعة ، موشاة بالتطريز
الدقيق عند العنق . وعلى جانبي
الصاكوه جيوب للرصاص ، موشاة
بالعاج والفضة . وكانوا يتمنطقون
بحزام من الجلد ، تمتدلى منه القامة
(الخنجر الشرکسى) ، والسيف
والطبنجة . وكانوا يلبسون الأحذية
المرتفعة . (الجزمة السوارى) ،
لركوب الخيل والخوض فى الثلج
والمياه ، ويضعون فيها الكرباج
الشرکسى المشهور . وكانوا يضعون

على رؤوسهم غطاء من الجلد

يعرف (بالقلبى) ، وقد أخذته

عنهم الأرمين والأتراك وبعض رجال الشعوب الشرقية الأخرى .

وأما نسائهم ، فكان يلبسن الثياب الحريرية الفضفاضة ،

والأحزمة الموشاة بالفضة والذهب . ويضعن على رؤوسهن غطاء

شرکسى بملابسه القومية

(من حرس جلالة الملك عبد الله)

(ملك المملكة الأردنية الهاشمية)

عنهم الأرمين والأتراك وبعض رجال الشعوب الشرقية الأخرى .

وأما نسائهم ، فكان يلبسن الثياب الحريرية الفضفاضة ،

والأحزمة الموشاة بالفضة والذهب . ويضعن على رؤوسهن غطاء

من الحرير الرقيق وتحتة قبعة مستديرة من الجلد المبطن بالحرير .
وكانت الأكام تتدلى إلى ماتحت أصابع اليد ، وفي نهايتها توشية
دقيقة بالقصب ، وأحياناً بالفضة والذهب .

ومما اشتهر عن نساء الشراكسة ، أنهن كن يصنعن كل هذه الملابس
بأيديهن ، ويفاخر بعضهن بعضاً بدقة صنعها .

دينهم ومعتقداتهم القديمة :

كان الشراكسة القدماء يعبدون آلهة متعددة ، ويطعمون لها
الطقوس الدينية في العراء أو تحت إحدى الأشجار المقدسة . ومن
آلهتهم القديمة : إله الحرب وإله الحصاد وإله الريح وإله الحب وإله
البحر وإله الصواعق وغيرها .

وفي عهد جوستينيان إمبراطور الرومان انتشرت الديانة المسيحية
في بلاد الشراكسة ، وجاءها كثير من الرهبان والقساوسة الذين
أسسوا الكنائس والأديرة . وما زالت بقايا بعض هذه الكنائس
قائمة في بلاد الشراكسة .

وكان أول ظهور الإسلام في القوقاز عام ٦٠٠ للميلاد على يد
المجاهدين العرب ، إلا أن عدد من أسلم كان محدوداً . وفي القرن
العاشر أسلم الداغستانيون ، وهم من الشعوب القوقازية ، وتبعهم
الكرج وبعض القبائل الشركسية . وبعد استيلاء العثمانيين على

القسطنطينية قويت شوكة الإسلام ، وأرسل الأتراك رسلهم الى شعوب القوقاز للتبشير بالدين الجديد ، كما جاء القوقاز رسل من خانات القرم المسلمين يدعونهم إلى الإسلام ، فأمن به عدد من الشراكسة . وما إن وافي القرن التاسع عشر حتى كانوا كلهم مسلمين ، باستثناء بعض القبائل البعيدة ، التي بقيت على وثنيها القديمة المشوبة ببعض التعاليم المسيحية .

قبائلهم ونظامهم الاجتماعي :

كانت تتألف الأمة الشركسية من عدة قبائل كبيرة ، أهمها حسب ترتيب الحروف الهجائية هي : الأبراخ ، الأبازة ، البسلني ، البرادوغ ، الحاتقواي ، الناتخواج ، القبردي ، الشابسوغ ، والأويش . وتتكلم هذه القبائل لغة واحدة ، ولو أنها تختلف بعض الاختلاف في اللهجات ومخارج الأصوات .

وكان المجتمع الشركسي يتألف من أربع طبقات هي :

- (١) الأمراء — وهم حكام البلاد في السلم وقادتها أثناء الحرب
- (٢) النبلاء — وهم الحكام الحقيقيون ويدهم تنفيذ الأحكام ومراعاة تطبيق القوانين والعادات الشركسية .
- (٣) الشعب — وهم طبقة الأحرار والزراع والصناع .
- (٤) الأتباع — وهم في الغالب أسرى الحرب ، وإليهم كانت توكل خدمة الأمراء والنبلاء .

وتنتقل الالقاب الرفيعة وراثه من كبير العائلة لأولاده . إلا أنه كان يصح أن يرفع إلى مراتب الأمراء والنبلاء من قاموا بأعمال جليلة أو أظهروا ذكاء وعبقريه خاصه ، أو امتازوا في المعارك بشجاعه نادره .

وقد انحل هذا النظام تدريجاً ، حتى انهار نهائياً خلال القرن التاسع عشر ليليلاد .

مدنيتهم القديمه :

الشرا كسه زراع ماهرون . وقد ساعدهم على ذلك خصب أراضيهم ووفرة المياه . وقد زار بلادهم الرحاله الانجليزى « جيمس بل » عام ١٨٢٦ فوصف حقوقهم بأنها تضارع فى تنظيمها وغلتها أحسن حقول يوركشاير بانجلترا . وقد وصف هذا الرحاله كذلك طرقهم الزراعيه ، ونظم الزراعات الجبليه ، ومنشآت الري الهندسيه ، مما يعد برهاناً على تقدم أيه أمة ، ورقبها الزراعى .

وقد اعقبنى الشرا كسه القدماء — كذلك — بتربيه المواشى ، والنحل ، كما اهتموا ببعض الصناعات الزراعيه مثل عمل الجبن والزبد من الألبان ، واستخراج النبيذ الجيد من العنب . وكانوا يشربون النبيذ بكثرة لتدفئه أجسامهم ووقايتهم من برد بلادهم الشديده . وقد اشتهر الشرا كسه منذ القدم بإتقانهم للصناعات المعدنيه ، وصياغة الحلى من الذهب والفضه . والشرا كسه ماهرون فى صناعة

النقوش الدقيقة والرسوم الجميلة على الفضة ، وكانوا يوشن بها ملابسهم وأسلحتهم وسروج خيلهم وأحذيتهم .

وبعد اكتشاف البارود ، كانوا يصنعونه بأيديهم من زيل الأغنام . كما كانوا يصنعون الطبنجات والسيوف من الفولاذ .

وقد أثبتت البعثات الأثرية في بلاد الشراكسة أنهم أول من اخترع إبرة الخياطة من الحديد والبرنز وأمشاط الشعر (١) .

والشراكسة من أول الشعوب التي اكتشفت البرنز واستعملته في بعض الصناعات المعدنية ، وهناك قول بأنهم أول من اكتشفه (٢) وقد عثر في بلاد الشراكسة على أوان مصنوعة من البرنز يرجع تاريخها إلى القرن العاشر قبل الميلاد (٣) .

وكان الشراكسة القدماء يستعملون الصحف والملاعق المصنوعة من الخشب ، أو الخزف الملون ، ثم أخذوا يصنعونها من النحاس والحديد .

وكان الشراكسة يصنعون الكراسي والمناضد بثلاث أرجل فقط ، كما كانوا يصنعون أسرهم من الخشب . ويرجع استعمالهم للأسرة الخشبية إلى ما قبل خمسةائة عام .

(١) تاريخ القوقاز — للمرحوم عزت باشا — ص ٢٤١

(٢) راجع: Antiquity Magazine—Vol. 12 — Sept. 1938

(٣) راجع كتاب : Urgeschichte Kaukasiens

ومؤلفه العالم الألماني Franz Hancär — Berlin 1937

وكانوا يقيمون في منازل مبنية بالطوب والأخشاب ، لعدم توفر الأحجار في بلادهم . وسقفها محدودب على شكل السرج (ويقال إن بناء القباب مأخوذ عن السقف الشركسي) ، مقام على أعمدة في وسط البيت . وكان يتألف المنزل عادة من ٤ إلى ٨ غرف ، ويلحق به إسطبل للخيل والماشية ، ومخزن للحبوب ، ومضافة مسورة فسيحة . وأما بيوت الخلاء فكانت تقام في مكان منعزل عن المنزل .

وكانت نساء الشرا كسة تستعمل حزاماً من الجلد لتخفيف الخصر ، ويقال إن الكورسيه الحديث منسؤه ذلك المشد الذي شاع استعماله في بلاد الشرا كسة وعند بعض الأمم القوقازية الأخرى . وقد اشتهرت نساء الشرا كسة بصناعة المصنوعات القطنية والصوفية كما برعن في صنع بعض الأدوات من الجلد ، وصناعة القصب والتطريز . وكل من شاهد ملابسهن شهد لهن بالذوق والدقة البالغين . والشرا كسة محبون للموسيقى والغناء . ولهم آلات موسيقية كثيرة أهمها الإكورديون والكان والمزمار . وقد اشتهرت موسيقاهم في أنحاء القوقاز وروسيا حتى أخذ عنهم الآخرون بعض الألحان وسجلوها في نوتات محفوظة .

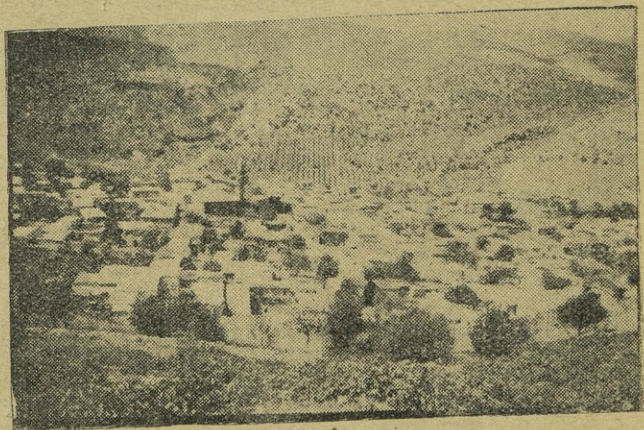
وأما في علم الفلك ، فقد قسموا السنة إلى اثني عشر شهراً . والشهر إلى أربعة أسابيع ، والأسبوع إلى سبعة أيام . وكانوا يسمون الأشهر بأسماء خاصة لها معان تترجم حالة الجو في ذلك الشهر .



كان من عادة الشراكسة القدماء إذا تقدم شاب لخطوبة فتاة ، وعارض والدها في إتمام الزواج لعدم التكافؤ أو غيره من الأسباب ، أن يتفق الشاب مع بعض أصدقائه لخطف الفتاة ، فيأخذونها الى بيت أحد الكبراء ، وعلى هذا الكبير أن يبلغ والد الفتاة بالأمر . فيجتمع كبراء الطرفين ويتفقون على إتمام الزواج حسب المراسيم الشرعية المعتادة .

وهذه صورة فارس شركسى ومعه فتاته المخطوفة .

فمثلاً ، كانوا يسمون يناير شهر البرد الشديد . ومارس شهر أول الربيع ، وسبتمبر شهر الحصاد ، ونوفمبر شهر التخزين ، الخ . وكانوا يعتبرون يوم الأربعاء يوماً مشؤوماً ولا يشتغلون فيه ، ويسمونه « يوم الوقاية » . ويسمون الأحد « يوم الله » وهو يوم مقدس عندهم ، وبقي كذلك حتى بعد اعتناقهم الإسلام . وكانت للأجرام السماوية عندهم أسماء مختلفة . وكانوا يطلقون على النجم القطبي اسم « غوازه » ومعناه الدليل ، لأنهم كانوا يهتدون به في سيرهم ليلاً . أما أسلحتهم فكانت عبارة عن الخنجر والسيف والحربة ، ولما ظهرت الأسلحة النارية استعملوها ببراعة فائقة . وكانوا يستوردون الرصاص من إنجلترا وتركيا . أما البارود فكانوا يصنعونه في بلادهم .



قرية « وادي السير » من قرى الشراكسة في شرق الأردن .

الفصل الثاني

تاريخهم السياسى القديم

تمهيد :

لم يؤسس الشراكسة ملكاً وطيد الأركان على ما هو مألوف فى
فى البلاد الأخرى ، بل كان نظام الحكم جاريّاً على طريقة حكم
النبلاء (الإقطاع) . ويرأس الحكم فى كل قبيلة أمير تنتخبه مدى
الحياة .

وكانت حياتهم منذ القدم سلسلة لا تنقطع من الحروب . فقد
كانت بلادهم لخصبها الزراعى والمعدنى هدفاً لكل طامع ، كما أنها
— بسبب موقعها الجغرافى بين قارتى آسيا وأوروبا — كانت ممراً
للشعوب الزاحفة من الشرق إلى الغرب وبالعكس . ومن ذلك
نشأت عند الشراكسة غريزة القتال دفاعاً عن النفس ، وطار صيتهم
فى الآفاق لشجاعتهم وصمودهم فى وجه الغزاة منذ فجر التاريخ .

وكانت أول محاولة جدية لغزو بلادهم من قبل ملوك خيوة ،
عام ٥٨١ للميلاد . وانتهت هذه الحروب بأن أسر الشراكسة ملك
خيوة ، وقطعوا رأسه ووضعوا حوله إطاراً كتب عليه : « هذا
جزاء الغاصب لبلاد غيره » .

حروبهم مع التتر :



وجاءت المحاولة الثانية من قبل التتر . إذ أخذ هؤلاء في مهاجمة القوقاز من الشمال والشمال الشرقي منذ القرن التاسع للميلاد وقامت بين الطرفين حروب متعددة .

وقد تمكن التتر بقيادة تيمورلنك من إخضاع كافة الولايات الروسية ، وأحرقوا مدينة موسكو ، وقتلوا من أهلها زهاء المائة ألف نسمة . وأخذ التتر أسرى كثيرين من الشعوب المغلوبة ، وكان بين هؤلاء عدد من الشراكسة وبعض الشعوب القوقازية والأخرى . فقتلوا بعضهم ، وساقوا معهم البعض الآخر ، وهؤلاء انتهوا إلى مصائر شتى .

ومنذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، أخذت الولايات الروسية تتحرر الواحدة إثر أخرى ، إلى أن ارتقى عرش موسكو إيفان (يوحنا) الرهيب عام ١٥٢٣ م .

الحاج سلطان مراد
من الشخصيات الشيشانية البارزة
في شرق الأردن ، بالملابس القومية

وكان إيفان ملكاً طموحاً أراد أن يؤسس إمبراطورية روسية مترامية الأطراف ، فأخضع بعض الولايات المجاورة ، وحالف الولايات الأخرى . وفي عام ١٥٣٩ تزوج إيفان من أميرة شركسية اسمها «ماريا» ، وبذلك وجد علاقته مع الشركسة ، الذين رغبوا في ذلك الحلف لكي يستعينوا به في صد عدوان التتر .

علاقاتهم بروسيا :

وفي العام ١٥٦٦ تمكن يوحنا من احتلال استراخان ، وطرد منها جيوش التتر ، وأقام عليها حاكماً أحد أصهاره من الشركسة . إلا أن هذه المحالفة بين الشركسة ويوحنا تراخت خيوطها بعد ذلك بعامين ، إذ اتهم يوحنا زوجته الشركسية «ماريا» بمحاولة اغتيال زوجها الأولى ، بأن دست لها السم ، فقتلها ، وبجّن أخويها اللذين كانا يعملان في بلاطه الامبراطوري . وبذلك وجد التتر الفرصة سانحة مرة أخرى لمعاودة الهجوم . فزحفوا على استراخان بقوات كبيرة ، واتبعت قوات أخرى نحو شمال القوقاز آتية من شبه جزيرة القرم ، إلا أن الشركسة انتصروا هذه المرة بالرغم من خسائهم الفادحة بالمادة والأرواح .

وقد وجد خانات القرم (وهم من التتر) أن سياسة القوة لم تعد تجدى مع الشركسة ، خصوصاً بعد أن شعروا بأن روسيا تؤيدهم ، حماية لمصالحها الخاصة ضد العدو المشترك ، فعمدوا بعد ذلك

التاريخ ، إلى استعمال الأساليب السياسية اللينة ، وأوعز لهم سلاطين الترك باستانبول بإرسال بعثات دينية تبشيرية لمحاولة إقتناع الشراكسة باعتماد الإسلام (إذ كانوا إلى ذلك الحين مازالوا نصارى) . وحضر إلى بلاد الشراكسة خان القرم نفسه عام ١٦١٨ م للتفاوض معهم وعقد الصلح . إلا أن الشراكسة لم يتأثروا بهذه المحاولات . ونشبت الحرب بين الطرفين من جديد .

حروبهم مع روسيا :

وفي عام ١٦٨٢ م ارتقى بطرس الأكبر عرش روسيا . وكان أول شيء عمله أن أعلن حمايته على بلاد القوقاز ، وأوعز إلى سفرائه بأن يذيعوا أن الشراكسة روس ، ولذلك فهو يفرض حمايته عليهم . ولكن الشراكسة شعروا بأنهم حاربوا التتر ليقعوا في قبضة الروس وأن بطرس الأكبر كان لا يهدف إلى حمايتهم بقدر ما كان يهدف لإنشاء إمبراطورية روسية ضخمة يترع على عرشها ، وذلك يتطلب حتما الاستيلاء على القوقاز واحتلاله حربيًا . فبنوا الشراكسة هذه السياسة الجديدة ، وكانت بعض قبائلهم قد اعتنقت الدين الإسلامي (القبردي هم أول من اعتنق الإسلام) فساعد هذا الأمر على إذكاء نار الكفاح ضد الروس كما ساعد على ذلك أيضاً أن قبائل الداغستان كلها كانت مسلمة .

وبعد وفاة بطرس ، ارتقت عرش روسيا زوجته كاترين ،

واستمرت هذه في تنفيذ سياسة زوجها في التوسع والفتح . فخرضت قوادها القوزاق على مهاجمة الشراكسة ومناوشتهم ، واستمرت هذه المناوشات زمناً إلى أن كشفت روسيا عن نياتها رسمياً عام ١٧٧٣ إذ أرسلت أول حملة رسمية لإخضاع القوقاز بقيادة الجنرال فوكشاني والجنرال سوفوروف وكانت روسيا مشتبكة في هذه الأثناء في حرب مع تركيا . وفي عام ١٧٨٣ أتمت روسيا إخضاع القرم ، وفي العام التالي طلبت تركيا الصلح ، وعقدت معاهدة ٢١ يوليو .

إلا أنه في عام ١٧٨٧ أرسل هرقل ملك جورجيا إلى كاترين يطلب حماية روسيا ، فأرسلت تركيا إنذاراً إلى كاترين تطلب فيه سحب هذه الحماية ، وألقت بالسفير الروسي في السجن . فقامت الحرب مرة أخرى بين الدولتين ، وتقهقرت الجيوش الروسية عن أكثر الأماكن التي احتلتها في الحرب السابقة . وفي هذه الأثناء أعانت السويد الحرب على روسيا تؤيدها بروسيا وبريطانيا . وانتهت هذه الحروب بمعاهدة ١٤ أغسطس سنة ١٧٩٠ التي أعادت الحالة إلى ما كانت عليه عند إعلان الحرب .

وفي سنة ١٧٩١ احتل الروس قلعة « أنابة » وأخذوا الشيخ منصور ، قائد القلعة ، أسيراً ونفوه إلى سلوفكس حيث قضى آخر أيامه . وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٧٩٦ ماتت كاترين بعد حكم ملىء بالحروب وإهراق الدماء .

وبعد وفاة كاترين ، استمرت الحملات المتفرقة ضد القوقاز ،

واصطلى الشراكسة وسائر شعوب شمال القوقاز نيران هذه الحروب .
حتى عام ١٨٥٤ ، إذ أعلنت كل من فرنسا وبريطانيا الحرب على
روسيا وتلتهما النمسا . وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٤ غزت قوات
هذه الدول المتحالفة القرم بقوة قدرها ٥٦ ألف مقاتل . وفى هذه
الحروب هلكت قوات كبيرة من الفريقين .

وفى ٣٠ مارس عام ١٨٥٦ عقدت الهدنة ، وبموجبها انسحبت
روسيا من أكثر البلاد التى احتلتها فى أوربا ، ووافقت على تدمير
القلاع المقامة على شواطئ البحر الأسود وضمان حرية الملاحة فى
هذا البحر .

إلا أن روسيا لم تكن تعوض عن خسارتها فى الميدان الأوروبى ،
اتجهت مرة أخرى نحو شعوب القوقاز المستضعفة فهاجمتها مرة أخرى
واحتلت مدينة قارس (Kars) فى القوقاز يوم ٢٨ نوفمبر عام ١٨٥٦
أى بعد إعلان الهدنة مع الحلفاء ببضعة أشهر . واستمرت قواتها
تزحف جنوباً ، وشعوب القوقاز تقاتل هذا الغزو بتصميم وعزم لم
يشهد لهما التاريخ مثيلاً . إلا أن العدو كان يتدفق من الشمال بكثرة
عددية هائلة ، واستعداد حربى تام ، فتوالت الهزائم على الشراكسة
وسائر شعوب القوقاز .

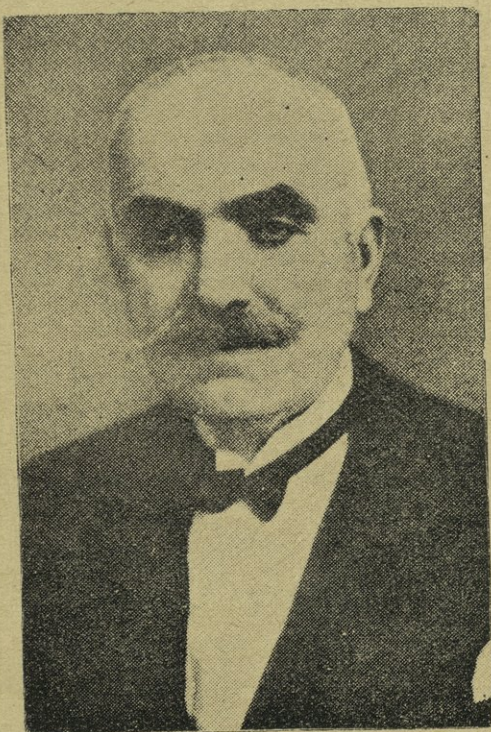
الهجرة :

وفى العام ١٨٦١ زار القيصر اسكندر الثانى جبهة القوقاز ، فقابله

بعض زعماء الشراكسة وطلبوا منه إيقاف القتال . فعرض عليهم
القيصر شروطاً تمايخص فيما يلي :

أولاً — أن يترك الشراكسة أوطانهم وجبالهم ويقيموا في
الأراضي التي تعينها لهم الحكومة الروسية .

ثانياً — تنتقل الإدارة المدنية إلى حكومة الإمبراطور ، الذي
يعين حاكماً روسيا للقوقاز له لقب نائب الملك .



الجنرال ميخائيل باشا رئيس أول جمهورية مستقلة في شمال القوقاز

(١٩١٨ — ١٩٢٢)

رفض الشراكسة هذه الشروط التعسفية وعز على أنفسهم أن يعيشوا أذلاء في بلادهم وهم الذين تعودوا الحرية وقتلوا القرون والأعوام في سبيلها، فهاجروا إلى تركيا، وبلاد الشرق الأدنى، وشجعهم الحكومة التركية على ذلك، كما نقل الروس بعض القبائل قسراً على السفن



الزعيم القوقازي المشهور الإمام الشيخ شامل

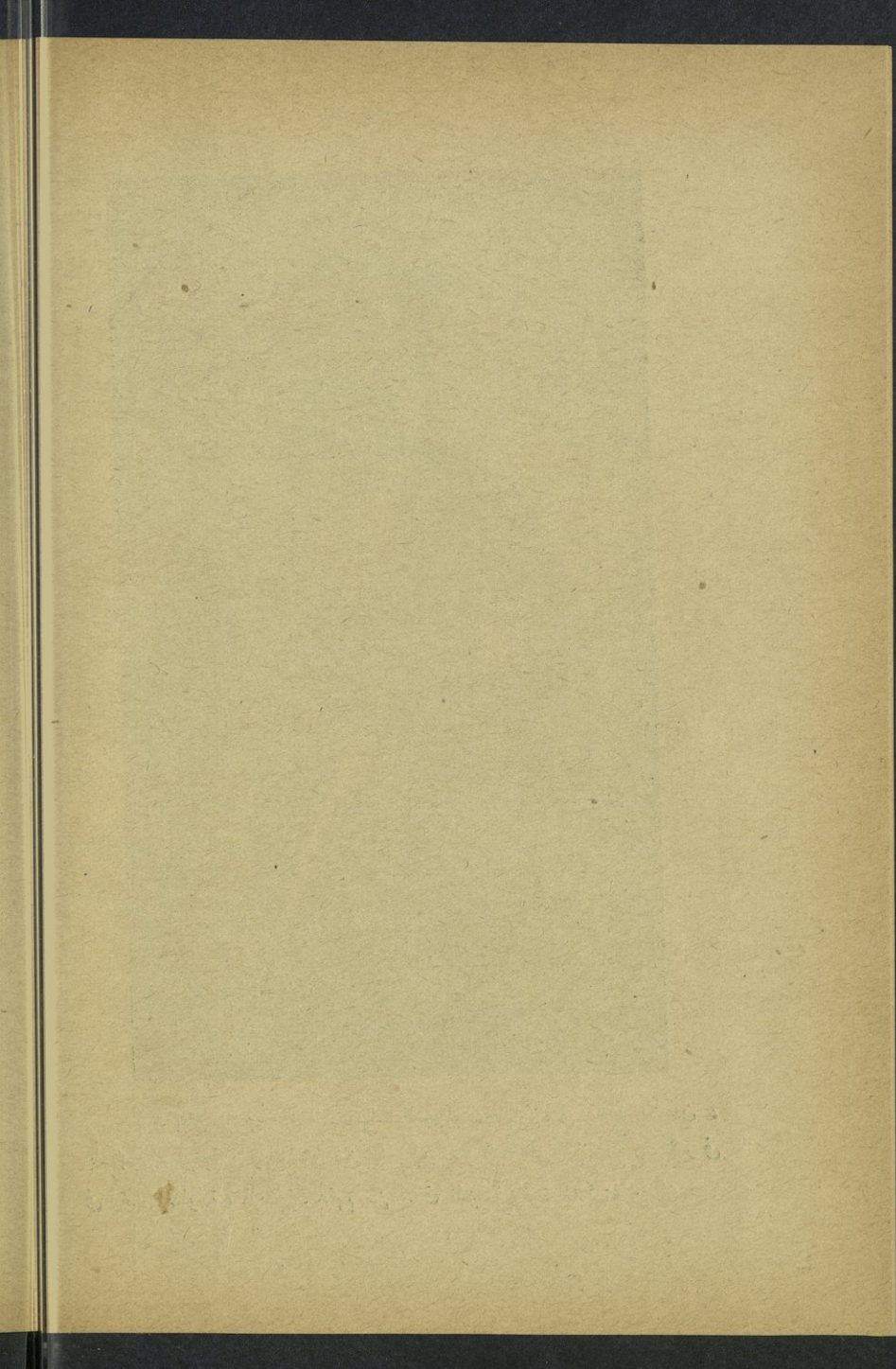
إلى خارج الحدود القوقازية ولم يبق في القوقاز إلا جزء ضئيل من مجموع الشعب الشركسي لا يزيد على المليون، وتحولت بلادهم

إلى أطلال وخرائب كنتيجة لهذه الحروب الطاحنة التي دامت أكثر من مائة عام .

وفي أثناء هذه الحروب توحدت الأمم القوقازية في قتالها ضد الغزاة تحت قيادة الإمام الشيخ شامل الداغستاني الذي أوجد نظاماً إدارياً موحداً وحكومة مركزية قوية ، وأنشأ الكتاتيب والمدارس لتعليم القرآن والقراءة والكتابة ومبادئ العلوم ، كما أنشأ المصانع لصنع الأسلحة والبارود . وكان يساعده في حملاته شراكسة الكوبان تحت إمرة (كراندوق بك) . وكان الشيخ شامل يقود جنوده إلى المعارك بنفسه ، وانتصر في عدة مواقع إلى أن أسره الروس ونفوه عام ١٨٥٩ بعد أن ناضلهم أكثر من عشرين عاماً ، فجاء إلى الحجاز مح ولديه شافع وغازي وتوفي فيه عام ١٨٩١ . وبأسره انتهت الحروب النظامية في القوقاز .

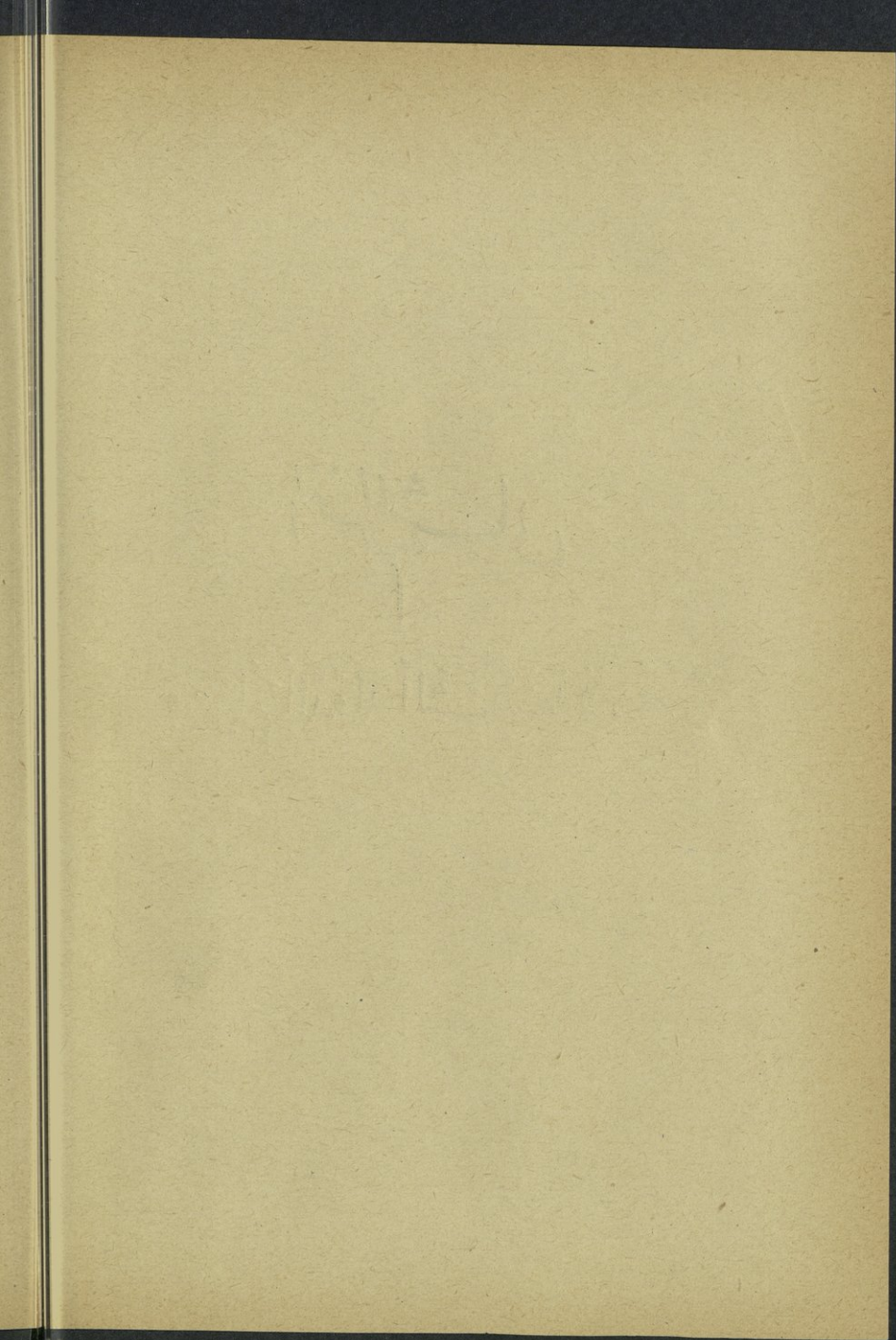


رشيد بك شالوف من الشخصيات الشيشانية البارزة في شرق الأردن ،
بالملايس القومية . والشيشان من الشعوب الشركسية التي كان لها أثر كبير في
في أعمال المقاومة ، لما عرف عنهم من صدق العزيمة وقوة الشكيمة .



القسم الثاني

قيام الدولة الشركسية في مصر



الفصل الأول

كيف جاء الشرا كسة إلى مصر ؟

كيف جاء الشرا كسة إلى مصر ؟

هل كانوا أرقاء ، يبعوا في أسواق القاهرة بيع العبيد ؟
وإذا كانوا كذلك ، فكيف تسنى لهم ارتقاء العرش ، وحكم
هذه البلاد مدة قرون ؟

لقد نعت المؤرخون — أو أكثرهم — الشرا كسة الذين حكموا
مصر بالماليك ، دلالة على أنهم كانوا عبيداً أرقاء ، اشتروا بالمال .
وقد استعمل المؤرخون الأجانب لفظة « العبيد » Slaves مثل السر
وليم موير في كتابه «عصر العبيد — أو الماليك — في مصر» . وفي
هذا الوصف كثير من التجنى وسوء التخريج ، كما سنبين ذلك تفصيلاً
فيما بعد .

يقول الدكتور على إبراهيم حسن في كتابه «دراسات في تاريخ
الماليك البحرية» أنه «يرجع ظهور الماليك في العالم الإسلامي إلى
ما قبل قيام دولتهم بأمد طويل . وربما كان أول من استخدمهم
هو الخليفة المأمون العباسي (٨١٣ — ٨٣٣ م) ، إذ كان في بلاطه
بعض الماليك المعتوقين . ثم الخليفة المعتصم العباسي (٨٣٣ — ٨٤٣ م)
حينما استخدم فريقاً من التركان لتدعيم سلطته» . وقال أيضاً : «وقد

أخذ بمبدأ استخدام الممالك ولاية مصر الإسلامية من الطولونيين إلى
 الأخشيديين ثم الفاطميين . ذلك أن أحمد بن طولون مؤسس الدولة
 الطولونية قد أكثر من شراء ممالك الديلم سكان جنوب بحر قزوين
 وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك
 وأربعين ألف من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتقة . وكان
 طولون أبو أحمد من الترك الذين كانوا يقيمون بين تركستان وسيبيريا
 وقد أسر في بعض الحروب فأهداه نوح بن أسد الساماني إلى الخليفة
 المأمون العباسي نحو سنة ٢٠٠ هجرية في جملة من الرقيق والهدايا
 كما كان الشأن في بلاد ما وراء النهر . ثم تأسست الدولة الأخشيدية
 (٩٣٥ — ٩٦٩ م) فجعل محمد بن طغج الأخشيد جيشه من الأتراك
 ومن الديلم . وقد بلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعة آلاف
 جندي عدا حرسه الخاص الذي بلغ عدده ثمانية آلاف مملوك . ولما
 جاء الفاطميون إلى مصر (٩٦٩ م) كانوا في حاجة إلى جيش كبير
 يوطد أركان دولتهم ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى
 بلاد الشرق . وكان جيشهم بادية الأمر مكوناً من المغاربة فأضافوا
 إليه في مصر غير أولئك من أتراك وأكراد وغز وديلم ومصامدة
 (نسبة إلى مصمودة قبيلة من البربر بالمغرب) . ولما انتقلت السلطة
 إلى الأيوبيين (١١٧١ م) نهجوا نفس تلك السبيل وأكثروا من
 شراء الممالك الترك وبنيت لهم الشكبات بجزيرة الروضة ، وأطلق

عليهم اسم المماليك البحرية . وأتيسر لهم بعد ذلك أن يقولوا الحكم في مصر .

« وكانت الغالبية العظمى لجماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم في مصر من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفقاز وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلاً عن أقلية من مختلف البلاد الأوروبية » .

وقال : « ولم تكن تجارة المماليك مقصورة على الشرق الأوسط ومصر ، بل امتد نطاقها إلى أوروبا حيث قامت تجارة المماليك بصورة واضحة . ويقال إن التجار الأوروبيين كانوا يجلبون إلى مصر كل عام نحو ألفين تقريباً من المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصقالبة والصرب ، كما كان الترك يرسلون بعض أسراهم المجر إلى أسواق الرقيق في مصر ليشتريهم المماليك » .

وفي الصفحة ٣٤ من الكتاب المذكور يقول الدكتور على إبراهيم حسن ما يلي : « وقد أنشأ السلطان قلاوون فرقة جديدة من المماليك من الأرمن والجر كس وأطلق عليها اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج قلعة الجبل التي أقاموا بها . وعرفت تلك الطائفة بإسم « الشراكسة » أيضاً وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمئة مملوك » (١) .

(١) وفي كتاب تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان أن عددهم بلغ نحواً من ١٢ ألفاً .

والسلطان قلاوون المذكور من سلاطين الدولة البحرية
(الأتراك) ، وقد حكم من سنة ١٢٧٩ — ١٢٨٩ للميلاد.

يتبين مما تقدم ، أن (المماليك) الذين استخدمهم العباسيون ومن
بعدهم الطولونيون والأخشيديون والفاطميون كانوا من الترك والتتر
والأكراد وغيرهم . وأول ذكر للشراكسة كان في العصر الأيوبي
وعصر السلطان قلاوون وفرقة الجديدة التي أنشأها من الأرمن
والجركس ، خلال الأعوام المذكورة من حكمه .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : كيف حصل
السلطان قلاوون وخلفاؤه من بعده على هؤلاء (المماليك) الجدد ؟
هل اشتروهم بالمال من سوق النخاسة ؟ هل كانوا من الجنود المرتزقة ؟
أم استقدموهم من بلادهم للخدمة في الجيش ؟

ويجيب على هذا السؤال النويري في كتابه « نهاية الأرب » بقوله :
« وفي سنة ٧١١ هـ عادت رسل الملك الناصر محمد بن قلاوون من عند
الملك طقطاي (ملك بلاد القفجق والجركس بالقوقاز) فاعترضهم
الفرنج في ربيع الأول وأسروهم جميعهم ، وكانواهم واتباعهم وعلباؤهم
نحو ستين نفرأ ، ومروا بهم على البلاد الساحلية وقصدوا بيعهم
ووصلوا إلى طرابلس الشام وعرضوهم للبيع واشتطوا في الثمن
وحلفوا أن لا يأخذوا في ثمنهم إلا ستين ألف دينار عينا ، فلم
يشترهم أحد . ثم توجهوا بهم إلى إياس وعرضوهم على صاحب «سيس»

(قرية بالسواحل الشامية) بهذا الثمن فامتنع ان يبتاعهم ، ثم توجهوا بهم إلى جزيرة المصطكى .

« فبلغ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ذلك ، فأمر بالقبض على تجار الفرج الذين بثغر الاسكندرية والحوطة على أموالهم . والتزم أن لا يطلقهم ولا يفرج عن أموالهم إلا بعد حضور رسله . فخرج شكران الجنوى التاجر متوجها إلى جزيرة المصطكى وخلصهم وأرسلهم إلى الديار المصرية . وكان وصولهم إلى مصر بين يدي السلطان في سادس عشر ربيع الأول سنة ٧١٢ هـ . »

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً ما يلي : « وفي سنة ٧١٣ هـ . وصلت رسل أوزبك خان إلى أبواب مولانا السلطان الملك الناصر سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية وكان وصولهم في ذى الحجة سنة ٧٤٣ هـ ، وحجبتهم من التقادم لمولانا السلطان ما لم تجر بمثله عادة . وكان في جملة رسالته انه يهنيء مولانا السلطان الملك الناصر باتصال الإسلام من النين إلى أقصى بلاد المغرب ، وقال انه قد بقى في مملكته طائفة على غير دين الإسلام . فلما ملك ، خيرهم بين الدخول في دين الاسلام أو الحرب فامتنعوا وقاتلوا ، فأوقع بهم وهزمهم وجيز إلى مولانا السلطان عدة من سباياهم . »

وهذا النص يدلنا على معنى صريح واضح : وهو أن الملك قلاوون تعمد إرسال رسله إلى بلاد القوقاز وبلاد القفقجق — وتشمل حوض الفولجا والبلاد الواقعة حول بحر قزوين — لإقناع أهل

تلك البلاد — وهم من جنسه — بالانضمام إلى جيشه والتطوع في خدمته . إذ أنه لو أراد الشراء لما تكلف إرسال الرسل والسفراء إلى تلك البلاد النائية ، ولما حاول الاتصال بمليكها وملاطفته .

ولوعدنا إلى القسم السابق من الكتاب ، لوجدنا أن الشرا كسة كانوا خلال هذه الأعوام في حروب مستمرة مع التتر . وقد جرت عادة العصر أن يتصرف الغالب بالأسرى وسبائا الحرب كما يشاء سواء بالقتل أو البيع أو الخدمة ، وهذا يطابق تماماً ما جاء في الاقتباس السابق عن نهاية الأرب للتويرى ، (وقد جاء مثل هذا الكلام في عقد الجمان للعيني) من أن الملك اوزبك خان أرسل بعض السبائا هدية إلى الملك قلاوون ، وكان هؤلاء السبائا خليطاً من الشعوب القوقازية والتركية ، وبينهم عدد من الشرا كسة .

ويؤيد هذا المعنى ما جاء في كتاب المسالك لابن العمري إذ قال : « وهم (أى التتر) مع استيلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار والآص يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء ويبيعونهم من التجار » .

ولم يفت هذا المعنى ابن خلدون ، المؤرخ العربى الشهير ، فقد كتب في تاريخه الجزء الخامس أنه كان « يخرج بهم التجار إلى مصر ارسالا كالقطا نحو الموارد ، فيستعرضهم أهل الملك منهم ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا بقصد الاستعباد إنما

هو اكتشاف للعصية ونزوع إلى العصبة الحامية ، يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرتهم ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة ومعاهد التريبة ومدارسة القرآن وممارسة التعليم حتى يشتدوا في ذلك ثم يعرضونهم على الرمي والثقافة وركض الخيل في الميادين والمطاعنة بالرماح والمماصة بالسيوف حتى تشتد منهم السواعد وتستحكم فيهم الملسكات ويستيقنوا منهم المدافعة عنهم والاستماتة دونهم ، فإذا بلغوا إلى هذا الحد ضاعفوا أرزاقهم ووفروا من أقطاعهم وفرضوا عليهم استجادة السلاح وارتباط الخيول والاستكثار من أجناسهم لمثل هذا القصد . وربما عمروا بهم خطط الملك ودرجهم في مراتب الدولة فيسترشح من استرشح منهم لاقتعاد كرسي السلطان والقيام بأمور المسلمين عناية من الله سابقة ولطائف في خلقه سارية . فلا يزال نشو منهم يردف نشواً وجيل يعقب جيلاً والإسلام يبتهج بما يحصل من الغنا ، والدولة ترف أغصانها في نضرة الشباب .

فهل يتبين القارئ من هذا الكلام معنى الرق كما رمى إليه المؤلفون والمؤرخون ؟ لقد استبعد المؤرخ الكبير ابن خلدون في عبارته السابقة قصد الاستعباد من استجلاب الشراكسة إلى مصر فيبقى أن الشراكسة قد أتوا مصر بإحدى حالتين كما بينا : الأولى — بدعوة من السلاطين المصريين للخدمة في الجيش تعضيداً لقوتهم ، ولحاجتهم لتغذية جيوشهم بدم جديد قوى . والثانية — أنهم كانوا أسرى

حرب بيد التتر الذين غزوا بلادهم وسبوا فتياتهم ونساءهم، فافتداهم سلاطين مصر بحكم الرابطة الدينية والجنسية التي كانت تجمع بينهم، إذ كان أكثر سلاطين مصر البحرية يمتنون إلى شعوب القوقاز بصلته . وقد اختلط الأمر على أكثر المؤرخين ، فسموا الفدية «شراء» ، ونعتوا هؤلاء الأسرى والسبايا بالمماليك — أو العبيد ، مع أن الشرع الإسلامي الذي يدينون به ، لا يجيز تلك التسمية . كما لا يجيز الرق على مسلم .

وقد حدد ابن خلدون في الجزء الخامس من كتابه « تاريخ ابن خلدون » الذين كانوا يستعرضون أولئك الأسرى والمجلوبين الجدد بأنهم كانوا « أهل الملك » ، وأضاف أن ذلك لم يكن بقصد الاستعباد ، إنما هو اكتناف للعصية واعداد للإمارة والقيادة والسلطنة . وهذا يؤكد قولنا بأن سلاطين مصر كانوا (يفتدون) أولئك الأسرى ، ويعدونهم لأعلى مراتب الملك والصدارة . وقد ورد مثل هذا الكلام في خطط المقرئى و « المنهل الصافى » ليوסף ابن تغرى ، في ترجمة الملك قلاوون ، إذ يقولان أنه كان مغرماً بجمع المال واقتداء « المماليك » أى فكاكهم من الأسر .

وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطى قوله : « وفي سنة ٧١٩ هـ رسم السلطان الملك الناصر بإبطال الرقيق ، وأن لا يباع مملوك لكاثر ولا لغامى . فهل يعقل أن الذين أبطلوا الرق ، يعتمدون إلى استرقاق بنى جلدتهم ؟

* * *

ولعلمه من المتناقضات فى الكلام عن « المماليك » اتهامهم بالعبودية

ثم القول بأنهم « عاشوا أثناء حكمهم مصر كطائفة منفصلة عما حوالها واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصرية ، سواء فى ذلك الأقباط والمسلمين ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أى جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر . وقصروا أعمال الجنسية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك ، حيث اشترطوا ألا ينخرط فى سلك المماليك الحرية إلا ما يستوردونه من جديد . أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون وظائف القلم ، ولم يكن لهم نصيب فى الجيش العامل ، اللهم إلا فى بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأتمة والصناع والاتباع .

« وبذلك يمكن القول بأن ممالك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم . وهذه العزلة والترفع انفرد بها المماليك حتى صاروا من أخص مميزاتهم . ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم . ولعل هذا كان ترفعاً منهم على أهل البلاد المحكومين ، ومحافظة على الأستقرارية التى تؤهل للعرش بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من وق وعبودية » . (١)

(١) الدكتور على إبراهيم حسن فى كتابه دراسات فى تاريخ المماليك البحرية

ولست أدري كيف يكون من كانت لهم هذه الصفات «ماليكاً» ،
وكيف يمكن أن نوفق بين القول بأنهم كانوا عبيداً أرقاء بينما لم يسمحوا
لأنفسهم بالتزواج مع أهل البلاد أو الاختلاط بهم . وكيف أمكنهم
أن يفعلوا ذلك . «محافظة على الأرستقراطية» إذا هم كانوا ، كما وصفهم
الكاتب المذكور ، وغيره ، - من العبيد والأرقاء . . . ؟

هل حدث مثل هذا في تاريخ الرق في أى بلد من بلاد العالم ؟ !
وهل استطاع الرقيق يوماً من الأيام أن يعزل نفسه مثل تلك
العزلة التامة ، ويعيش في أرستقراطية مهيبة ، كما كان يعيش الشراكسة
وملوكمهم ؟ !

هل كان يمكن أن يكونوا رقيقاً بالمعنى الذى رى إليه المؤلفون
والكتاب ، وهم الذين لم يسمحوا للصريرين أو سكان أى جزء من
أجزاء مملكتهم بالانخراط في صفوفهم والامتزاج معهم ؟ !

ولو عدنا إلى كتاب «تاريخ الممالك» للسر وايم موير ، لو جدناه
يعطينا سبباً آخر لمحبيهم إلى مصر . ففي ذلك الكتاب يقول المؤلف
لإنهم «استدعوا» (Summoned) لتأييد الخلافة العباسية
وحمايتها من طبقة العبيد التى كانت آخذة في القوة والانتشار ، وكانت
هذه الطبقة تتألف من أجناس مختلفة من البربر والسودانيين والأكراد
والتتر وغيرهم . فدخلوا جيوش الخلافة العباسية جنوداً أحراراً
مرتزقة . ويؤيد هذا الكلام المقرنى في كتابه (الخطط) جزء ١ ، كما

يؤيده الأستاذ احمد حافظ عوض بك في كتابه «فتح مصر الحديث»
صفحة ٦ حيث قال : « إنه لم يكن الرق الذي ينسبونه إلى الماليك
إلا كلمة لا معنى لها » .

وقد فصل ابن خلدون كيفية استيلاء المغول على اللان والقبيجق
في الصفحة ١١٤ من المجلد الخامس من تاريخه « العبر » ، وكذلك
ابن الأثير في « الكامل » جزء ١٢ ص ١٥٩ ، بما خلاصته أن الأيوبيين
كانوا يأبون السماح بدخول المنهزمين عن المغول من الغز والتركمان إلى
بلادهم . ولكن أصحاب الحكم في الدولة الأيوبية كانوا قد فتحوا باب
الدخول إلى مملكتهم على مصراعيه للقوقازيين من اللان والقبيجق
وغيرهما ممن يشملهم اسم الجر كس .

وفي ذلك يقول صاحب « المزارات الإسلامية والآثار العربية »
جزء ٤ : « فإذا علمت أن أصل الأيوبيين من دوين قرب تفليس
بالقوقاز ، وأن رئيس الفرقة الأسدية في الدولة الأيوبية هو أياز
كوج القوقاسي ، كما إن رئيس الفرقة الصلاحية هو نخر الدين أياز
الجر كسي القوقاسي أيضاً ، علمت سر السماح لهم دون الآخرين ، لأن
آل أيوب كانوا على علم من مبلغ بسالة القوقاسيين وأمانتهم حتى جعلوا
قيادة أسد الدين شيركوه وقيادة جنود صلاح الدين بييد قائدين
قوقاسيين . وهذا ما دعاهم إلى الاستكثار منهم » .

وهناك سبب آخر يؤيد حجبتنا أيما تأييد . فلو سلطنا جدلاً بأن

الشرا كسة كانوا أرقاء يجلبون من بلادهم لبيعهم في أسواق النخاسة ،
فما هو الداعي لأن يختار النحاسون مصر بالذات من دون بلاد العالم
لتصريف بضاعتهم البشرية ؟ يرد الدكتور على ابراهيم حسن على
هذا السؤال في كتابه « دراسات في تاريخ الممالك البحرية » بقوله
إن تجارة الممالك لم تكن مقصورة على بلاد الشرق الأوسط ومصر ،
بل امتد نطاقها إلى أوروبا حيث قامت تجارة الممالك بصورة واضحة .
فهل يستطيع الدكتور حسن أو غيره من الكتاب الأفاضل أن
يبينوا لنا كيف ظهر هؤلاء الأرقاء في مصر إذن وبرزوا على أهلها
حتى استولوا على مقاليد السلطنة ، ولم يظفر لهم أى أثر مافى أوروبا ؟
وهل هناك مستند علمي يؤكد حقيقة أن (ممالك) الترك والشرا كسة
بيعوا فى أوروبا ، واقتناهم أهلها ؟ إن هذا الأمر لم يدعيه بعد أحد
من العلماء والمؤرخين الثقات ، وعلى ذلك فإنه يجب أن يكون هناك
تفسير علمي منطقي لاختيار مصر لإحضار تلك الأجناس بالذات
إليها . وقد يجب البعض على ذلك بقوله إن ذلك عائد إلى أن
القاهرة كانت من أهم أسواق الرقيق فى العالم . فإذا كانت كذلك ،
فلماذا اقتصر (شراؤهم) على السلاطين من دون سائر طبقات
الشعب ؟ ! ألا يدعونا جواب هذا السؤال إلى إقرار النتيجة المنطقية
الوحيدة ، التى ذكرناها سابقاً ، وهى أن الشرا كسة لم يكونوا رقيقاً فى
يوم من الأيام بل كانوا أسرى حرب يفنديهم زملاؤهم بالمال ويعتقونهم ،
وأن لفظ (الممالك) أطلق عليهم خطأ من قبل بعض المؤرخين

الذين عاصروهم ، فغلبت عليهم تلك الصفة وهم منها براء ، وجرت عليها أقلام الكتاب بعد ذلك حتى عصرنا هذا بلا ترو ولا تمحيص ؟ بل إن المؤلف أن هؤلاء الكتاب لم يكشفوا بذلك ، بل حاولوا الحط من قدر سلاطينهم وأمرائهم في أكثر كتاباتهم بأن عرضوا بأصلهم « الوضع » ، و « مأمروا به من رق وعبودية » ، فأضافوا بذلك إلى جانب الخطأ العلى الذى ارتكبوه خطأ آخر مقصوداً ، هدفهم منه التشهير والخط من قدر أولئك الرجال الذين كانوا يوماً من الأيام سادة هذه البلاد وحكامها .

وإنك لو راجعت تاريخ الجبرقى لوجدته يستعمل لفظة المملوك بدل « الممالك » عند الكلام عن سلاطين الشراكسة ، وفى كلامه عن البكوات (بعد الفتح العثمانى) كان يشير إليهم بقوله « الأمراء المصرية » . وهذا عين الصواب ، من مؤرخ مشهور عرف بالدقة والنزاهة .

وختاماً لهذا الفصل ، ننقل فيما يلى كلمة كتبها الأستاذ العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثرى وكيل مشيخة الاسلام فى تركيا سابقاً ، تعليقاً على موضوع جلب الشراكسة إلى مصر فى الجزء الرابع من كتاب « المزارات الاسلامية والآثار العربية » لمؤلفه الأستاذ حسن قاسم . قال :

« والظاهر مما تقدم أن جلب هؤلاء الجراكسة إلى مصر كان للتجنيد وحراسة البلاد لا للخدمة . والمملوك هو الأبيض كما نص

عليه الخفاجي في شفاء العليل ، والعبد هو الزنجي أو الحبشي . وأنت ترى كثيراً من الأجانب يسمون دولة القوقاسيين بمصر « دولة الممالك » وسائرهم أناس من الوطنيين وأحفادهم في هذه التسمية . أما الأجانب فلم أغراض في هذا التلقب حيث كانوا يحملون بين ضلوعهم أضغان حروب حالت دون وصولهم إلى آمالهم في استملاك الشرق — وأما من سائرهم من الذين سبق ذكرهم في هذه التسمية فقد آذى نفسه قبل إيدائهم لأن من يكون تحت حكم الممالك يكون أنزل منزلة منهم . فيكون من لقبهم بذلك اللقب ، انتقاصاً لهم من الذين كانوا هم وآباؤهم تحت حكمهم ، قد سب نفسه قبل أن يسبهم . على أنه لم يتول « ملوك » الملك أصلاً بمبايعة أهل الحل والعقد قبل فكك رقبته ، فيكون إطلاق « الممالك » على ملوكهم كذباً صريحاً بالنظر إلى حالتهم عند توليهم الملك . والمجاز باعتبار ما كان إنما يصح في بعضهم لو قامت قرينة تصرف عن الحقيقة ونكتة ترجح المجاز غير قصد الشتيمة التي لا تبيحها الشريعة الإسلامية ولا يستسيغها الخلق الكريم . وأما حكاية سعي العز بن عبد السلام فلم تكن إلا في أشخاص معينين من الاتراك استخدموا في وظائف حكومية قبل فكك رقبته في عهد المظفر قطز الخوارزمي ، فيكون « العز » قد مهد السبيل لإعتاقهم على تقدير صحة الحكاية ، على أن راوى الحكاية عنه يقول : إنه كان يأمر الريح فتقف وتهيج ، فن الذي يستطيع أن يعاكس رأى مثله كائناً ما كان رأيه ؟! نعم إنه قد يوجد

بينهم من مسه الرقى في أوائل حاله ، لكن قد علم الباحثون أن بيعهم في
الأوائل ، إنما كان باستيلاء كفار المغول على بلادهم .

« وأسير الحرب إذا بيع كما هو الجارى في تلك العصور ،
لا يدل هذا على أنه غير أصيل ، بل يدل على أنه وطنى صميم ، عانى كل
شقاء في سبيل الدفاع عن بلاده . وقد استمر ملوكهم بمصر على
إخلاصهم لبني قومهم في الأسر في مختلف الدول ، واستجلابهم إلى
مصر بدفع أثمان باهظة للمستحوزين عليهم فداء ، فليسهم أصحاب
القلوب القاسية « ممالিকা » لهذا السبب إن شاءوا !!

« وبعد أن استقر ملكهم بمصر ، كانوا يسعون في جلب الصغار
من بني قومهم القرقاسيين ببعث تجار يجلبونهم من هناك ، وما كان
يخطر ببال الجالب ولا ببال المجلوب يوماً أن ذلك لأجل الاستعباد .
« نعم ، لا ينكر أن أناساً من الظلمة ، ولا سيما في جهات (القرم)
التي كانت تحت حكم المغول (التتر) إذ ذاك ، كانوا يخطفون الأولاد
الاحرار كلها سنحت لهم فرصة ويبيعونهم بيع الأسرى ، فيجلبون
إلى مصر ، وينالون العز بعد الذل كما وقع لسيدنا يوسف عليه السلام .
وليس في هذا وصمة للمخطوف المسكين ، بل المجرم كل الإجماع هو
الخاطف المتوحش !

« وأختتم الكلام هنا بذكر أنموذج عن كيفية جلب الجراكسة
إلى مصر في عهد الدولة البرجية ، وقد قاله أبو حامد المقدسى في

واخر كتابه « دول الاسلام الشريفة » (١) نقلا عن بعض أساتذة
الطباق (٢) ، قال :

« ومولانا السلطان الآن يسمع بان فلانا وصل من جركس
فيرسل نائبه إلى بلاد حلب للملاقاته بفرس بسرج ذهب وكنبوش
وكاملية طرش ، ويقف النائب في خدمته وكذا كل من مر عليه ،
بل ومن حين وصوله يعمل خاصكياً قبل أن يقلع قماش الأجلاب ،
فما يرى نفسه إلا ملكاً لأملاك . . . ا.هـ .

هذا كلام صريح يؤيد ما ذهبنا اليه في هذا الفصل ، وأرجو أن
أكون قد وفقت في إزالة هذه الوصمة التي ألحقت بهؤلاء الملوك
العظام ظلماً وبغياً .

(١) هو أبو حامد محمد بن خليل بن يوسف المقدسى ، توفي بالقاهرة سنة ٨٨٨ هـ
وكتابه من المخطوطات النادرة .

(٢) أكبر كلية حربية في مصر في ذلك العصر .

الفصل الثاني

قيام الدولة الشراكسية في مصر

(٧٨٤ — ٩٢٣ هـ أو ١٣٨٢ — ١٥١٧ م)

نظرة إلى الوراء :

فتح العرب مصر سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) أثناء خلافة عمر بن الخطاب ، على يد القائد عمرو بن العاص . وكانت قبل ذلك التاريخ إيالة رومانية . وأصبحت منذ ذلك الحين تابعة للخلافة الإسلامية العربية . وقد تتابع على مصر ولاة يحكمونها باسم الخلفاء ، حتى عام ٢٦٩ هـ ، حين استقل بإدارتها وحكمها أحمد بن طولون ، المعين والياً عليها من قبل الخليفة العباسي ببغداد . وبذلك تأسست في مصر الدولة الطولونية .

إلا أن هذه الدولة لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما عادت مصر إلى قبضة الخلفاء العباسيين (عام ٢٩٣ هـ) . وظل الحال كذلك حتى عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) حين ولى عليها الأمير محمد بن طغج الاخشيد (وهو تركي) ، فاستقل بإدارة البلاد ، وضمت الى إمارته مكة والمدينة . وجاء بعده كافور ، وبعد موته انحلت الدولة الجديدة ودبت الفتنة في البلاد ، إلى أن فتحها جوهر الصقلي عام ٣٥٨ هـ زاحفاً من بلاد المغرب حيث كان الفاطميون (وهم يدعون الانساب

إلى فاطمة الزهراء ومذهبهم من الشيعة) دولة قائمة عاصمتها (القيروان) . وبعد فتحها انتقل إليها ملوك الفاطميين ، وجعلوا القاهرة عاصمة ملكهم وسموها بالمعزية نسبة إلى المعز لدين الله الفاطمي مؤسس الدولة الجديدة . وهم الذين أسسوا الجامع الأزهر لنشر الدعوة الفاطمية ، ومن ملوكهم الحاكم بأمر الله الذي ادعى الألوهية (٣٨٦ هـ — ٤١١ هـ أو ٩٩٦ — ١٠٢٠ م) ، واختلف الرواة في قصة موته أو اختفائه . ويدعى الدروز أن الحاكم هو المهدي المنتظر ، ويقولون إنه سيعود متى زالت المفاسد واختفت الشرور من العالم .

وقد دبت الفوضى في أواخر أيام هذه الدولة ، إلى أن استولى على مقاليد الحكم صلاح الدين الأيوبي الكردي معيماً من قبل الخليفة العباسي للقضاء على الفاطميين ومذهب الشيعة . وقد منحه الخليفة العباسي إثر توقيقه في القضاء على الفاطميين ثم الصليبيين لقب «سلطان» وبذلك تأسست في مصر دولة جديدة هي الدولة الأيوبية (٥٦٧ — ٤٦٨ هـ أو ١١٧١ — ١٢٥٠ م) .

ومن ملوك هذه الدولة السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ أو ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) . وفي أيامه تمرت فرق من الجيش ، فاستجلب عدداً كبيراً من الأتراك ، وأحلهم في أرفع منزلة . وقد تزوج واحدة منهم هي شجرة الدر^(١) . وهي التي تولت العرش بعد قتل ابن زوجها ، توران شاه ، وحكمت مدة ثمانين يوماً تخللتها

(١) وفي بعض الروايات أن شجرة الدر أرمنية الأصل ، كما إن بعض الروايات الأخرى تنسبها إلى أصل شركسي .

مؤامرات ودسائس كثيرة . فتزوجت من « أيبك » التركاني وعينته قائداً للجيش ، ثم تنازلت له عن العرش . وبعد تنازلها حاول أن يتزوج غيرها فدبرت قتله ، وحاولت أن تتزوج غيره وتقيمه على الملك ، ولكنها فشلت هذه المرة ، وتعين سلطانا على بن أيبك ولم يكن عمره يتجاوز الحادية عشرة . وأول شيء عمله أن أمر بقتل شجرة الدر انتقاماً لأبيه ، فماتت ضرباً بالقباقيب .

وباعتلاء أيبك العرش (سنة ٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م) تأسست في مصر دولة الأتراك البحرية — وهي المعروفة في التاريخ باسم « دولة المماليك البحرية » . ويعتبر بعض المؤرخين تاريخ اعتلاء شجرة الدر العرش بداءة هذا العصر .



استمر ملوك هذه الدولة يبسطون سلطانهم على مصر مدة ١٣٦ عاماً ، وظهر من بينهم سلاطين عظام ، مثل الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ أو ١٢٦٠ — ١٢٧٩ م) ، الذي اجتمعت فيه صفات العدل والشجاعة وحسن السياسة . وبعض المؤرخين يعده مؤسس هذه الدولة الفعلية ، إذ نظم الحكم ، وشؤون المال والإدارة ، وبسط الأمن ، كما حارب الصليبيين وغلبهم في جميع المواقع ، وقاد بنفسه جيوشه لمحاربة التتار عند اغارتها على بلاد الشام . وإليه يعود الفضل كذلك في إعادة انشاء الاسطول المصري وتقويته (١) .

(١) وصفه الأستاذ جورجى زيدان في كتابه (تاريخ مصر الحديث) بقوله : « وكان ملكاً جليلاً عجولاً طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارساً مقداماً » .

وقد تضاربت الآراء في أصل هذا الملك العظيم . فمن قائل إنه من القبيحاق (١) ، والترك (٢) ، وقال آخرون إنه شركسى من القوقاز (٣) .

ومن سلاطين هذه الدولة العظام أيضاً ، السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، وقد شئت هذا السلطان شمل الصليبيين في فلسطين واستولى على ما كان قد بقي في أيديهم ، عام ٦٨٦ هـ ، عدا مدينة عكا التي استولى عليها ابنه الأشرف خليل عام ٦٩١ هـ بعد وفاة أبيه . كما حارب التتار أيضاً ، وصدد تقدمهم في سوريا . ومن آثاره الباقية جامعته الشهير ومقامه وكلاهما داخلان في بناء البيمارستان التأم بجوار خان الخليل . كما شيد كثيراً من المدارس والمساجد والملاجيء .

وفي عهد الملك قلاوون وفد على مصر كثير من الشراكسة كما تقدم في الفصل السابق ، وهو الذي أنشأ منهم الفرقة الشركسية التي عرفت أيضاً بالبرجية (٤) . وأنشأ لهم كذلك «طباقة القلعة» حيث

(١) عصر سلاطين المماليك للأستاذ محمود رزق سليم — القاهرة ١٩٤٧

(٢) تاريخ المماليك للسر ولم موبر ، وغيره

(٣) المزارات الإسلامية والآثار العربية جزء ٤ ص ٤٠٦

(٤) في المقرئى أنهم دعوا بالبرجية لسكنائهم أبراج القلعة . إلا أن الأستاذ العلامة الشيخ زاهد الكوثري في تعليق له على أحد فصول كتاب (المزارات الإسلامية والآثار العربية) تأليف الأستاذ حسن قاسم ، جزء ٤ ، يقول إن السلطان قلاوون ساهم (بالبرجية) باعتبار أن قلاوون شركسى من قبيلة (برج) ، فنسبهم إليه .

كانوا يتدربون على الأعمال العسكرية ، ويلقنون أساليب الحكم ، وغير ذلك من العلوم .

وتعاقب على العرش بعد قلاوون عشرون سلطانا ، آخرهم الصالح زين الدين حاجي بن شعبان ، عام ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) . وكان في الحادية عشرة من عمره ، فعين برقوق الشرکسی أتابكا — أى قائداً للجيش — وقام بإدارة الملك باسم السلطان حاجي مدة عام ونصف . ثم انعقد رأى القضاة والأمراء على وجوب خلع الملك الصالح حاجي ، وتولية الملك مكانه من يستطيع أن يقوم بأعبائه . فاجتمعوا وخاطبهم بدر الدين بن فضل الله القاضي قائلا : « يا أمير المؤمنين وياسادق القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان في البلاد ، وخامر غالب الثواب في البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » (١) . وعلى أثر ذلك بويع برقوق بالسلطنة ، وبذلك انتهى عصر هذه الدولة ، وقامت الدولة الشرکسية في مصر ، وذلك في ١٩ رمضان عام ٧٨٤ هـ .

(١) تاريخ مصر في العصور الوسطى ، للدكتور على إبراهيم حسن .

الملك الظاهر برقوق

(٧٨٤ - ٨٠١ هـ أو ١٣٨٢ - ١٣٩٨ م)

صفاته :

اسمه الكامل : برقوق بن أنس بن عبدالله الشركسي . وقد سمي برقوقا لتقوى في عينيه .

وقد وصفه صاحب شذرات الذهب (١) بقوله : « كان شهياً شجاعاً ذكياً خبيراً بالأمور عارفاً بالفروسية خصوصاً اللعب بالرمح ، يحب الفقراء ويتواضع لهم ويتصدق كثيراً ولا سيما إذا مرض . وكان جمهورى الصوت كبير اللحية واسع العينين مجبياً لجمع المال ، طامعاً جداً . وله آثار كثيرة » .

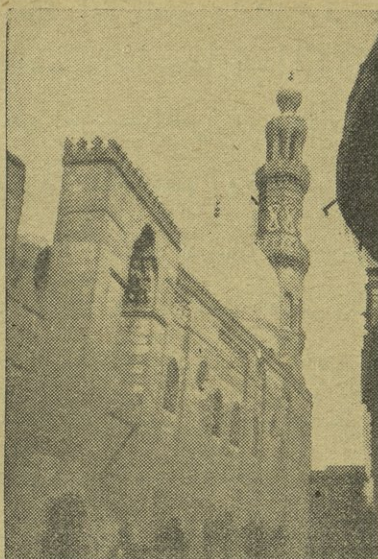
أعماله :

وبعد مبايعته ، لقبه الخليفة (٢) والعلباء بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من السلالة السابقة ، ونعني به ركن الدين الظاهر بيبرس .

وكان تيمورلنك إذ ذاك يزحف بجيوشه الجرارة صوب سوريا ومصر ، فذهب إليه برقوق بجيش عظيم وهزم تيمورلنك في ناحية سيواس ، فتمكن بذلك من إيقاف زحف التتار على الأراضي

(١) هو المؤرخ أبو الفلاح عبد الحى بن العماد . والاقباس المذكور من جزء ٧ ص ٧٥٦ .

(٢) هو الخليفة العباسي المتوكل بالله محمد بن المعتضد . وكانت مبايعته في الواقع سورية لأنه لم يكن للخلفاء في ذلك العصر أى نفوذ سياسى .



جامع السلطان برقوق

السورية. إلا أن
الخليفة المتوكل بالله
العباسي دبر مؤامرة
لعزل برقوق ولكنها
اكتشفت قبل وضعها
موضع التنفيذ. فجمع
برقوق الأئمة والمشايخ
وناقشهم ، وعلى أثر
هذا الاجتماع أمر
برقوق بخلع الخليفة

ونصب مكانه الخليفة الواثق بالله. وتوفي هذا الخليفة الجديد في ١٩ شوال
سنة ٧٨٨ هـ فنصب برقوق مكانه أبا يحيى زكريا عمر بن الخليفة
المستنصر بالله، إلا أن هذا لم يلبث طويلا لأنه أساء إلى السلطان
برقوق فخلعه في جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ وأعاد إلى الخلافة
المتوكل بالله . إلا أن المتوكل تمكن هذه المرة من خلع برقوق عن
العرش ، ونفاه بمساعدة بعض الأمراء الترك إلى قلعة السرك .
وأعاد إلى كرسى السلطنة حاجي آخر سلاطين الدولة السابقة ولقبوه
بالمك المنصور بدل الصالح . وفي الفترة التي تلت عزل برقوق عمّت
الفوضى وقام نزاع خطير بين اثنين من الأمراء هما يلبغا أمير حلب

ومنطاش أمير ملطية . واستغل برقوق فترة الاضطراب هذه ، فهرب من الأسر وأنشأ جيشاً جديداً أكره به السلطان حاجي على التنازل له مرة أخرى عن العرش . وعاد برقوق إلى عرشه ثانية فاستقبلته القاهرة استقبالا عظيما ، وذلك عام ٧٩٢ هـ .

وما أن استتب له الملك ثانية ، حتى استأنف تيمورلنك زحفه على سوريا ، بعد ان اجتاحت فارس والعراق . وفي تلك الاثناء ، وصل إلى برقوق وفد من قبل بايزيد سلطان الترك العثمانيين ، يطلب معاهدتهم على السلم وإقرارهم رسمياً على سلطنة الأناضول ، فأجابهم برقوق إلى ما طلبوا . فلما أحس تيمورلنك باتفاق العثمانيين مع سلطان مصر ، أرسل من قبله وفداً لمقابلة برقوق وحمله على الغاء اتفاهه السابق ، الا أن هذا الوفد لم يحسن مخاطبة برقوق ، فأغلظوا له القول وازدادوا فجوراً كلما عمده برقوق إلى ملاينتهم ، فأمر بقتلهم .. فشق ذلك على تيمورلنك وعزم على الانتقام ، فتمقدم حتى حلب ونكل بأهلها وسبي نساءها ورجالها ، ثم توقف فجأة عن الزحف .

أهم مراتب الدولة في عهده :

وكان لبرقوق ولع خاص باقتداء الشراكسة أبناء جلدته ، واستجلابهم إلى مصر . وجعل في مصالح الدولة مراتب هذه أهمها :

(١) أتابك العساكر (أى قائد الجيوش)

(٢) رأس نوبة الأمراء

- (٣) أمير السلاح
- (٤) أمير المجلس
- (٥) أمير الياخور
- (٦) رأس النوبة الثاني
- (٧) حاجب الحجاب
- (٨) النائب

وهؤلاء كانوا بمثابة « مجلس وزراء » ، يبدعهم مقاليد الحل
والربط ، وتصريف الشؤون .
آثاره :

توفي برقوق على فراشه يوم الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ عن
نحو ستين سنة ، وقد بكاه الناس لعدله ورفقه برعيته .
ومن أعماله الجليلة أنه أبطل كثيراً من المكوس وألغى العوائد
التي كانت تجبى على الثمار والغاكمة الواردة عن طريق بولاق . وقد بنى
مدرسة عالية دعاها « المدرسة الطاهرية » نسبة إليه قال عنها صاحب
شذرات الذهب « إنه لم يتقدم بنام مثلها »^(١) كما ابنى جامعاً لا يزال
إلى اليوم معروفاً باسمه . وأنشأ جسراً فوق نهر الشريعة (الأردن)
كان ذا فائدة كبيرة للمسافرين في ذلك العصر . وفي ذلك يقول
شمس الدين محمد المزين^(٢) :

(١) شذرات جزء ٦ ص ٧

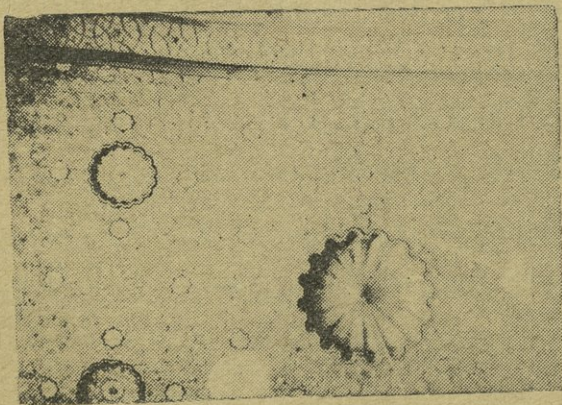
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

بني سلطاننا للناس جسراً بأمر والوجه له مطيعة
مجازاً في الحقيقة للبرايا وأمرأ بالسلك على الشريعة
وقد ضربت النقود في عهده باسمه ، وخطب له على منابر ماردين
والموصل وسنجار وغير ذلك . ويصفه صاحب « شذرات الذهب »
بأنه « كان أعظم ملوك الشراكسة بلا مدافع ، بل المتعصب يقول إنه
أعظم ملوك الترك قاطبة » .

الملك الناصر فرج بن برقوق

(٨٠١ — ٨١٥ هـ أو ١٣٩٦ — ١٤١٢ م)

تولى العرش بعد وفاة أبيه ولقبه العساكر بالملك الناصر . وكان
عمره إذ ذاك عشر سنين وسبعة أشهر .



سقف جامع برقوق . لاحظ النقوش الدقيقة التي رصع بها .

ولد فرج عام ٧٩١ هـ ، وسماه أبوه « بلغاق » ، ثم أسماه « فرجا »
وقد عرف منذ طفولته بالشجاعة المتناهية المقرونة بشيء من الثور
والطيش .

وكان أول شيء عمله فرج بعد اعتلائه العرش ، أن أمر
بالاستعداد لصد زحف تيمورلنك التتري ، فجمع جيشاً كثيفاً وسار
على رأسه . وكان تيمورلنك قد استأنف زحفه من حلب وأخذ في
طرق أبواب دمشق . وقبل أن تصل جيوش الناصر فرج كانت
جيوش تيمورلنك قد احتلت المدينة وذهبت من سكانها الكثير
وهتكت أعراض نساءها ، وسبت عدداً ضخماً من علماءها وشيوخها
وأعيانها ، وفعلوا بهم أشنع مما فعلوا بمدينة حلب .

إلا أن تيمورلنك أراد أن يتلافى التهام جنوده بجيوش فرج
الزاحفة ، فرحل عن الشام بعد أن أحرقها وتركها خراباً .

وفي عام ٨٠٤ هـ تمكن تيمورلنك من هزيمة جيوش العثمانيين
بقيادة بايزيد في موقعة بالقرب من أنقرة ، فجزع فرج لهذا النصر ،
واقترن ذلك ببعض الفتن الداخلية ، فرأى فرج أن يعتزل الحكم تحت
ضغط هذه الظروف ، وفي ١٦ ربيع أول سنة ٨٠٨ هـ أجبر على
ترك العرش لأخيه عبد العزيز بن برقوق ، وعمره سبعة عشر عاماً .

إلا أنه لم يكديمض شهران على تولية عبد العزيز ، حتى خاب
أمل الناس فيه . وطلب رجال الدولة من فرج أن يعود إلى العرش ،
فعاد في جمادى الآخرة من نفس السنة ، وعول هذه المرة على أن يكون

عند حسن ظن الناس فيه . فسير جيشاً قوياً لاسترجاع سوريا ، وكان تيمورلنك قد أدركته منيته ، وتقاسم أبناءه الملك ، فتمكن فرج من قهرهم واسترجع سوريا كلها . واهتم في راحة الرعية ، فساد الأمن وسكنت القلوب ، وعم الاطمئنان . (١)

إلا أن الخليفة العباسي المستعين بالله (وكان قد ولي الخلافة بدلا من الخليفة المتوكل بالله سنة ٨١٣ هـ) كان يطمع باستعادة السلطة السياسية إلى جانب السلطة الدينية للخلفاء (٢) ، فأمّر على ذلك مع شيخ الحمودى الظاهرى ، وكان فرج إذ ذاك فى دمشق يقاتل ، فبعثا اليه يطلبان منه التنازل ، فأجاب فرج إن جوابه الوحيد هو السيف ، فأصدر الخليفة المنشور التالى ووزعه على الشعب والجند :

« من الإمام أبى الفضل العباسى المستعين بالله أمير المؤمنين إلى أهل مصر .

« اتنا نصرح بخلع فرج بن برقوق عن سلطنة مصر وسوريا لأن السلطان الحقيقى عليها انما هو الخليفة سلالة النبى (صلعم) ونائبه . فطوبى لمن أذعن له ، وويل لمن أعرض عنه ، والسلام . »

(١) الاستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢

(٢) كان الخلفاء العباسيون منذ استئصال شوكتهم من بغداد وإقامتهم فى مصر لايزيدون عن كونهم أئمة فى نظر الأهالى ، ولم تكن لهم أية سلطة زمنية ، بل انحصر نفوذهم فى شؤون الدين .

وقد أحدث هذا المنشور السياسى المغطى بسترار من الدين فعله
فى نفوس الشعب والجند ، فثاروا على سلطانهم وأحضره إلى
الخليفة مقيداً . فأمر الخليفة بقتله ، فقتلوه خارج أسوار دمشق
فى ٢٥ محرم سنة ٨١٥ هـ ، وتركوا جثته ملقاة على دمنة هناك .
ويعتبر الناصر فرج من أعظم سلاطين الشراكسة لشجاعته
وبطولته ، وما جده من المباني ، ولا مثلاء عصره بكثير من العلماء
والادباء (١) . وقد نسب إليه بعض المؤرخين أنه كان يشرب الخمر ،
قليل الحرص على الدين ، إلا إن هذا الادعاء كان يذيعه خصومه من
أنصار الخليفة العباسى للقضاء عليه ، وتنفير الناس منه ، بدليل
الحوادث والمؤامرات التى حاكها الخليفة المذكور ، والتى انتهت
بقتل السلطان كما تقدم .

وحكم الخليفة العباسى بعد مقتل فرج مدة ستة شهور ، ثم لم يعد
يقوى على مواجهة الدسائس التى كان يحيكها له شيخ الحمودى ،
فولاه نيابة الملك فى ٨ ربيع أول سنة ٨١٥ هـ إرضاء له ، ثم عينه
شريكا فى الملك ولقبه بالملك المؤيد . وبعد وقت يسير استطاع
الحمودى أن ينفرد بالسلطة ، وحبس الخليفة فى بعض غرف القصر .

(١) عصر سلاطين المالك وتناجه العلمى والأدبى للأستاذ محمود رزق

سلطنة المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى

(٨١٥ — ٨٢٤ هـ أو ١٤١٢ — ١٤٢١ م)

نشأته :

قدم شيخ عبد الرحمن المحمودى القاهرة وعمره حوالى ١٢ سنة ، وكان جميل الصورة ، حلو الحديث ، ذكياً فدعاه برقوق وقربه إليه ، ثم عينه فى الحرس السلطانى ، ثم جعله من السقاة ، ثم أميراً للبحر ، ثم نائباً للشام .

صفاته :

قال فى المنهل : « وكان ملكاً شجاعاً مقداماً مهاباً عارفاً بالحروب والوقائع جواداً على من يستحق الإنعام ، بخيلاً على من لا يستحقه ، طويلاً ، بطيئاً ، واسع العينين أشهلهما ، كث اللحية ، جهورى الصوت ، سباباً ذا خلق نىء وسطوة وجبروت وهيبة زائدة ، يرجف القلب عند مخاطبته ، محباً لأهل العلم ، مبجلاً للشرع ، مدعناً له غير مائل إلى شىء من البدع » .

ومما أثر عنه أيضاً أنه كان موسيقياً بارعاً ، خطيباً ، بسيط الملبس والمعيشة ، يتخلط بالشعب كأنه منهم . (١)

(١) تاريخ القاهرة للبكاشى عبد الرحمن زكى .

حكمه :

لم يسكت الخليفة المستعين بالله العباسي على سجنه بالقصر ، فكتب سرّاً إلى نوروز أحد أصدقائه القدماء وكان قد ولاه سوريا يستنجد به . فتقدم نوروز مسرعاً إلى القاهرة ، إلا أنه وجد أنه أضعف من أن يقاوم السلطان ، فأوعز إلى الخليفة أن يستعمل الطرق الدينية كما في المرة السابقة ، وكان الحمودى فى دمشق ، فأصدر الخليفة منشوراً بحرماته وخلعه . إلا أن الحمودى تمكن من الوصول إلى القاهرة فى الوقت المناسب ، وقبض على المستعين بالله ونفاه إلى الاسكندرية عام ١١٨ هـ ، وعين أخاه داود خليفة مكانه .

وقد حكم الحمودى مدة ثمانى سنوات وخمسة أشهر ، وكانت وفاته فى ٩ محرم سنة ٨٢٤ هـ . وكان خلال هذه السنوات يعمل جاهداً لكسب ثقة الرعية ، فقرب اليه العلماء وأقام المباني الجميلة ، وابتنى الجوامع وأشهرها «جامع المؤيد» بالقرب من باب زويلة ، وهذا الجامع كثير النقوش ، وسقفه يعتبر من آيات الفن الهندسي البديع ويقصده اليوم الكثير من علماء الآثار والسواح لمشاهدته ودراسة نواحيه الفنية والهندسية ^(١) كما أمر ببناء البيمارستان المؤيدى (عام ١٤١٨ م) بالقرب من القلعة .

(١) قال صاحب « شذرات الذهب » فى جزء ٧ ص ١٦٥ عن هذا الجامع أنه « ما عمر فى الإسلام أكثر زخرفة وأحسن ترخيماً منه بعد جامع دمشق » .



جامع المؤيد

وبعد وفاته بويع ابنه أحمد ولقب بالمظفر وكان رضيعاً لم يفظم،
فقام بتدبير الملك أمير المجاس الأمير ططر، وتزوج أم السلطان الطفل.

سلطنة الملك الظاهر أبو الفتح ططر وولده محمد

(٨٢٤ هـ — ١٤٢١ م)

نشأته :

نشأ ططر في عهد السلطان برقوق وكان مقرباً إليه . ترقى حتى
صار أميراً مائة مقدم ألف بالمملكة المصرية ، ثم أميراً للسلاح ، ثم
أميراً للجلس ، (عام ٨١٥ هـ) .

صفاته :

كان ملكاً فظناً عفيفاً عن المنكرات مائلاً إلى العدل يحب الفقهاء وأهل العلم ، بارعاً في حفظ الشعر عارفاً باللغة التركية . وكان قصيراً جداً أسود اللحية كبيرها ، مليح الشكل ، يتكلم بأعلى صوته وفي صوته بحة . ونسب إليه أنه كان كثير التعصب لمذهب الحنفية ، حتى قيل أنه كان يضع مشروعا لإعفاء جميع فقهاء المذاهب الأخرى من مناصب الشرع والقضاء .

أعماله :

بعد وفاة السلطان السابق ، خرج ططر إلى الشام بالسلطان والخليفة والقضاة والجند وعزل وولى ، ثم توجه إلى حلب ، فوطد فيها الأمور ، وعاد إلى دمشق واستمال الخواطر وتحجب إلى الأمراء . وفي ١٩ شعبان سنة ٨٢٤ هـ أعلن ططر خلع الملك الطفل واعتلى هو العرش ملقباً بالملك الظاهر .

وفي ١٧ رمضان عاد ططر بحاشيته إلى القاهرة فدخلها يوم الخميس ٤ شوال . إلا أنه لم يهنأ طويلاً بالحكم إذ هاجمه المرض فلزم بيته وبقى مريضاً إلى أول ذى الحجة فجمع الخليفة المعتمد بالله داود القضاة والأمراء ، وعهد لولده محمد بالسلطنة (وعمره إذ ذاك ١٢ عاماً) وعين الأمير جانبك وصياً عليه . وفي ضحى يوم الأحد ٤ ذى الحجة

توفي السلطان عن خمسين عاماً ودفن بالقرافة بجوار الإمام الليثي بن سعد . وكانت مدة سلطنته ٩٤ يوماً . (١)

إلا أن الأمراء عادوا وقرروا في إجتماعهم يوم ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ مبايعة برسباى الدوادار بالسلطنة نظراً لاقتداره وقوة شكيمته ، ولحاجة المملكة الشديدة إلى رجل قوى يحسن تدبيرها وإدارتها .

الملك الأشرف برسباى

(٨٢٥ — ٨٤١ هـ أو ١٤٢٢ — ١٤٣٧ م)

نشأته :

هو الملك الأشرف برسباى بن عبدالله أبو النصر الدقاق (نسبة للأمير دقاق المحمدي) ، من رجال السلطان برقوق ، كان ساقياً في عهد الناصر فرج بن برقوق ، وما زال يصعد سلالم الرقي إلى أن صار أميراً بمائة مقدم ألف ، وفي سنة ٨٢١ هـ تولى إمارة طرابلس الشام فأحسن تدبيرها ، ثم نقل إلى دمشق برتبة أمير مائة مقدم ألف .

(١) راجع شذرات الذهب جزء ٧ ص ١٦٥ .

وقد قيل في رواية أخرى أن الملك ططرمات مسموماً بيد مطلقة ، وأن الذي تعين وصياً على ولده الحدث هو برسباى الدوادار (راجع تاريخ مصر الحديث جزء ٢ للمرحوم جورجى زيدان) .

وفي سنة ٨٢٤ هـ عاد إلى مصر بصحبة الملك الظاهر ططر ، وبقى بالقاهرة حيث ظهرت كوامن صفاته التي أهلتة للعرش ، فتولاه كما بينا في شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ .

صفاته:

كان برسباي ملكاً جليلاً مهيباً عارفاً سيوساً متواضعاً حسن الخلق شهماً شجاعاً ذا شعبة نيرة وهيمة حسنة ، متجمللاً في حركاته حريصاً على ناموس الملك ، لا يتعاطى المسكرات أبداً ، وكانت أيامه في غاية الحسن . (١)

ويعد بعض المؤرخين الملك برسباي أجدر ملوك الشراكسة بالمدح لأنه كان أرفعهم هممة وأشدهم عزيمة وأكثرهم تدرباً في الأحكام (٢). وقد وصلت الحدود المصرية في عهده إلى بيراموس والفرات .

سياسته وفتوحاته:

كان برسباي من أعظم سياسيي عصره وقادته ، إن لم يكن أعظمهم . قال عنه صاحب « شذرات الذهب » : « إنه ساس ملكه أحسن سياسة ونالته السعادة ، فكانت أيامه في غاية الحسن » .

(١) عن كتاب شذرات الذهب جز ٧ ص ٣٣٩ .

(٢) الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ٥٣ .

وفي عصره تزايد وفاء النيل حتى غمر القطر بالخيرات ، فكثر
الحبوب ، وشجع الفقراء ، كما صك النقود الأشرفية أجود أنواع
الدنانير الذهبية .

ومن أعماله الحرية الموقفة ، غزوه لجزيرة قبرس واحتلالها .
وتفصيل ذلك ، أنه بعد طرد الصليبيين من البلاد السورية إتخذت
بعض شراذمهم المنهزمة جزيرة قبرس قاعدة لها ، وأنشأت فيها دولة
صليبية جديدة كما أصبحت تلك الجزيرة مابجاً للقراصنة الذين كانوا
يعيشون فساداً في البحر المتوسط . وفي سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)
جهز ملك قبرس بطرس الأول حملة بحرية لغزو الاسكندرية ، إلا
أن قواته لم تبق فيها أكثر من ثلاثة أيام جلت بعدها عن المدينة
حاملة معها خمسة آلاف أسير .

وفي سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣ م) عاود الصليبيون الهجوم على
المملكة المصرية ، فاحتلوا مدينة الاسكندرية ونهبوها ، كما هاجمت
أساطيلهم في السنة التالية مدينتي طرابلس وبيروت ، وألحقوا بهما
تلفاً بالغاً (١) .

إزاء هذه الهجمات المتكررة ، ومصادرة السفن المصرية في البحر
المتوسط ، قرر برسباي احتلال جزيرة قبرس وتأديب ملوكها .

(١) تاريخ الممالك للسروليم موير ، ومصر في العصور الوسطى لمؤلفه لاين

بول (LANE — POOLE)

فأنشأ أسطولاً قوياً في بولاق مكوناً من أربعين سفينة ، وسيره عام ١٤٢٥ م (٨٢٩ هـ) لاحتلال الجزيرة . فاستولت الحملة على ثغر فاما جوستا ومدينة ليماسول (العاصمة) وعادت هذه الحملة ومعها ألف أسير بيعوا في أسواق القاهرة (١) .

وفي العام التالي أرسل برسباى قوة بحرية أخرى تمكنت هذه المرة من القضاء نهائياً على أسطول الصليبيين ، وأحرقت سفنهم . ونزلت الجنود المصرية إلى البر واشتبكت مع الصليبيين في معركة شيروكيتيوم التى انتهت بهزيمة الصليبيين ، وأسر ملكهم جيمس لوزيجنان .

ولما عادت هذه الحملة إلى القاهرة ، أحضرت معها عدداً كبيراً من الأسرى ، ومن بينهم ملك الجزيرة المذكور . ولما أدخلوه على برسباى ، كان بلاط السلطان حافلاً بممثلى الدولة العثمانية ، وشريف مكة ، وملك تونس ، وبعض الاشراف والعلباء وعظماء الدولة ، فدخل جيمس وسط هذا الجمع مكبلاً بالأغلال ، وأمره برسباى بشقيل الأرض أمامه عقاباً له لاجترأه على مهاجمة ملكه وتخريب المدن وأسر بعض رعاياه ، ثغر جيمس على الأرض مغشياً عليه ، من هول هذا الطلب .

وبعد تلك الحادثة ، تدخل قنصل البندقية وبعض التجار

الأجانب ، ودفعوا فديته لفسكاكه من الأسر . فقبل برسباى إطلاق سراحه ، بشرط أن يدفع الجزية لمصر ، وأن يزول عنه لقب الملك ، وأن يعود إلى قبرس وإلياً معيناً من قبل ملك مصر . فقبلت جميع هذه الشروط ، وظلت قبرس تابعة لمصر منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٥١٧ م حينما احتل العثمانيون مصر .

وفي أثناء هذه الحروب ناصرت جزيرة رودس معقل الفرسان الاستبارية الذين أمعنوا في قتال المسلمين في الشام جزيرة قبرس في حربها ضد برسباى . فسير عليهم برسباى جيشاً لاختضاعهم ، إلا أن ظروف الفريقين المتحاربين كانت تقتضى عقد الصلح ، فعرض الاستباريون الصلح على برسباى فقبله ، لانشغاله في حرب المغول (١)

وقد تمكن برسباى كذلك من بسط نفوذه على مكة وجدة ، واحتكر تجارة الشرق . كما تمكن لحسن سياسته وحزمه من استبقاء السلطنة بيده والبلاد في سكينته إلا في عام ٨٢٧ هـ إذ ثار عليه الأمير بنيق النجاشى وكان قد ولاه دمشق . غير أن برسباى قضى على هذه الثورة بسهولة ، وعاقب الثأرين . وكانت هذه الحركة أولى القلاقل وآخرها في عصره .

وقد عقد برسباى مع ملوك الافرنج وسلطان آل عثمان إذ ذاك

(١) الدكتور على ابراهيم حسن في كتابه مصر في العصور الوسطى .

مراد بن محمد عدة معاهدات سلمية تدل على عظم شوكته . فكانت مصر بذلك سعيدة داخلا وخارجا . ومات يوم السبت في ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) بعد أن حكم ١٧ سنة و ٨ أشهر و ٦ أيام ، وعمره ستون سنة . وبويع بالسلطنة بعده ابنه يوسف وعمره أربعة عشر عاما .

بعض آثاره :

وقد شاد برسباى فى القاهرة عدة منشآت مازالت ناطقة بجهوده وفضله حتى يومنا هذا ، كما رمم مدناً عدة . ومن أبنيته فى القاهرة الجامع الكبير المعروف بجامع الأشرفية تجاه سوق العطارين بالقرب من الموسيقى عند منعطف الغورية ، وقد ابتدأ فى بنائه عام ٨٢٦ هـ . ومنها : مدرسة بسوق الوراقين ومدرسة بخناقاه سرياقوس . وغير ذلك من المنشآت .

وما يحمد له أنه أبطل جميع التذلات التى كانت تقدم للبلوك قبله ، واكتفى بتقبيل اليد .

يوسف بن برسباى :

لم يكن يوسف بن برسباى ، السلطان الحدث ، أحسن حظاً ممن سبقوه من السلاطين الأحداث ، إذ لم تدم سلطنته أكثر من ثلاثة أشهر ، أجمع الأمراء بعدها على مبايعة قائد الجيوش جقمق ، فبويع بالسلطنة فى ١٩ ربيع أول عام ٨٤٢ هـ (١٤٣٨ م) .

الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبد الله

(٨٤٢ — ٨٥٧ هـ أو ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م)

اعتلى العرش وعمره ٦٩ سنة . وقد واجه أول حكمه عدة ثورات منها ثورة حلب لإرجاع يوسف بن برسبای إلى العرش ، وثورة منافسه قرقيش ، إلا أنه تمكن من القضاء على كل هذه الثورات وشتت شمل القائمين بها . وبذلك استتب له الأمر ، وأخذ في تصريف أمور الدولة بهدوء وحزم .

صفاته :

كان جقمق كريماً مولعاً بمجالس العلماء والأدباء ، عاشت البلاد في كنفه في راحة واطمئنان . وكان مغرمّاً بحب الأيتام والإحسان إليهم وإلى غيرهم ، متواضعاً ، يقوم لمن يدخل عليه من أهل العلم والشرف والصلاح ، جواداً ، برّاً طاهر الفم ، فقيهاً فاضلاً شجاعاً عارفاً بأنواع الفروسية . لم يزن ولم يسكر . لم يذكر أحد من ملوك مصر في الدولة الأيوبية أو التركية على عفقه وعبادته . (١)

سياسته وفتوحاته :

تمكن جقمق بحسن سياسته من توطيد العلاقات الحسنة مع فارس وأمرأ آسيا الصغرى .

(١) شذرات الذهب جزء ٧ ص ٢٩١ .

وقد رأى جقمق أنه لا بد من القضاء على حصن رودس الذى امتنع فيه الاسبتاريون ، لكي يستتب له الأمر فى البحر المتوسط وبذلك ينفذ الخطة التى كان وضعها الملك الأشرف برسباى . فسير على الجزيرة ثلاث حملات لغزوها : الأولى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وكانت مكونة من خمس عشرة سفينة ، إلا أن هذه الحملة فشلت بعد أن تكبدت خسائر فادحة . وأرسل جقمق الحملة الثانية عام ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) ، إلا أن اشتداد الأعاصير وهيجان البحر اضطرا الحملة للعودة ثانية إلى مصر قبل وصولها الجزيرة . وفى العام التالى أرسل جقمق حملة ثالثة ، فوصلت جزيرة رودس وخربتها ، ولكن الاسبتاريون استسلموا بالدفاع عن آخر حصونهم فى الشرق ، ووقعت بين الفريقين خسائر كبيرة فى الأرواح . ولما طلب الاسبتاريون الصلح ، قبله جقمق ، وعادت جيوشه إلى مصر . وبقيت هذه الجزيرة فى يد الاسبتاريين حتى عام ١٥٢٢ م عندما احتلتها الجيوش العثمانية .

وقد عمل جقمق على تحسين علاقاته بالدولة العثمانية ، فتزوج من شاه زاده إحدى أميرات آل عثمان ، وتبودلت بينه وبين السلطان وسائل ودية . وفى عهده احتل العثمانيون القسطنطينية ، فاحتفل جقمق بهذا النصر (عام ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ م) .

وفى هذا العام اشتد المرض على جقمق ، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره . فتنازل عن العرش لابنه نضر الدين عثمان ، وتوفى فى ليلة الثلاثاء ثالث صفر عام ٨٥٧ هـ بعد تنازله باثني عشر يوماً . ومدة حكمه ١٤ عاماً وعشرة أشهر .

وبعد مبايعة عثمان بن جقمق، لقب بالملك المنصور. إلا أن الخليفة القائم بأمر الله حرض على خلعه، طمعاً بالسلطنة. فقامت ثورة بين العلماء انتهت بخلع المنصور عثمان بعد أن دامت سلطنته ثلاثة وأربعين يوماً لاغير. أما الخليفة، فقد حبّطت مساعيها لاعتلاء كرسى السلطنة، إذ اجتمع الأمراء وبايعوا أبا النصر ينال ولقبوه بالملك الأشرف وذلك في صبيحة يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ.

الملك الأشرف ينال

(٨٥٧ — ٨٦٥ هـ أو ١٤٥٣ — ١٤٦٠ م)

نشأته وصفاته :

هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر ينال العلّائي، نشأ في عصر الملك برقوق وكان من رجاله المقربين. وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق ترقى إلى رتبة أمير طبلخانة، ولما ولى الأشرف برسبای السلطنة رقاها إلى رتبة أمير مائة مقدم ألف. وفي عهد الظاهر جقمق تولى وظيفة الدوايرية الكبرى، ثم عينه أتابكا، ثم قادراً للأسطول.

وكان ينال طويل القامة، خفيف اللحية، قليل الظلم، متجاوزاً عن الخطأ^(١). كما اشتهر بالكرم وهدوء النفس. وقد أغدق الهبات

(١) شذرات الذهب جزء ٧ ص ٣٠٥

على الأمراء والعلماء والأئمة ، ولعله قصد بذلك إرضاءهم وضمأن تأييدهم (١) .

أعماله وغزواته :

كان أول شيء عمله السلطان الجديد أن أمر بخلع القائم بأمر الله عن الخلافة . فقال له الخليفة : « من أين لك أن تخلع الخلفاء ولهم وحدهم أن يولوا ويعزلوا ؟ » فكان جواب ينال أن قبض عليه ونفاه الى الاسكندرية ، حيث مات .

وفي أثناء حكمه حاول الافرنج استعادة سلطتهم على جزيرة قبرس ، فأنشأ ينال أسطولا بحرياً لتأديب المغيرين . كما أرسل حملة لتأديب المغيرين على أطراف مملكته الشمالية . فحاصرت قونية وقيسارية وخربتهما ، وسلمت لها كرمات دون قتال .

وفاته وما تبع ذلك :

توفي ينال يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) بعد أن حكم ٨ سنوات وشهرين و١٦ يوماً ، وبويع بالسلطنة من بعده ابنه شهاب الدين أحمد الملقب بأبى الفتح ، وبعد مبايعته لقب بالملك المؤيد وعمره إذ ذاك سبع وثلاثون سنة إلا أنه لم يستطع كبح جماح الأمراء ، فخلعوه يوم ١٨ رمضان سنة ٨٦٥ هـ ، ولم يمض على توليته سوى أربعة أشهر تقريباً .

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان — جزء ٢



جامع السلطان الأشرف برسباي

وكانت نية الأمراء الشرا كسة متجهة إلى مبايعة نائب الشام
الأمير جانم ، فكاتبوه بذلك ، وملكوا عليهم الاتابكي «خوش قدم»
مؤقتاً ريثما يحضر الأمير جانم ويتسلم زمام السلطنة .

إلا أن خوش قدم (وهو من أصل يوناني وليس شركسيا)
تمكن من الاحتفاظ بالعرش وأرضى الأمراء والجند بحسن سياسته
وأعقد لهم الهبات . ثم رتب خطة للتخلص من منافسه الأمير
جانم ، فأرسل إليه من قتله في دمشق . وبذلك خلا له الجو .

إلا أنه ما إن اكتشف أمراء الشرا كسة مقتل «جانم» حتى ثاروا ،

وتأكدوا من أن هذا الدخيل ينوى الاحتفاظ بالعرش لنفسه . إلا أن خوش قدم تمكن بدعائه وسعة حيلته من الإيقاع بين صفوف الأمراء ، فانقسموا على بعضهم ، وبذلك تربع على العرش بكل اطمئنان ، ولم يعد ينافس فيه أحد .

وتوفي خوش قدم في ١٠ ربيع أول سنة ٨٧٣ هـ بعد أن حكم مدة ست سنوات ونصف .

وبعد موته ، بويع بالسلطنة أبو سعيد بلبای ، ملقباً بالملك الظاهر . وكان مستبدّاً فكرهته الناس . وبعد ٦٦ يوماً من توليته خلعه وولوا مكانه الأمير سعيد تماربوغا ولقبوه بالملك الظاهر أيضاً ، إلا أن الملك الجديد لم يكن أفضل من سلفه ، فخلعه بعد شهرين من توليته وبايعوا الأمير قايتبای ، ولقبوه بالملك الأشرف . (١)

الملك الأشرف قايتبای

(٨٧٣ — ٩٠١ هـ أو ١٤٦٧ — ١٤٩٥ م)

نشأته وصفاته :

لقبه الكامل : الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قايتبای . كان أمير عشرة تحت إمرة ينال ، ثم رقاہ السلطان خوش قدم إلى أمير طبلخانة (أي أمير . ٤ وله الحق بدق الطبول أمام منزله) ، ثم

(١) كان قايتبای أميراً للجيش ، وهو من الذين افتداهم الملك الأشرف برسبای .

عينه مفتشاً للبيوت والمرطبات ، ثم مقدم ألف . وفى سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) ترقى إلى رأس نوبة النواب (أى رئيس قواد الفرق) .

وصفه صاحب « شذرات الذهب » (١) بقوله : « لم يكن له فى زمنه منازع ولا مدافع . وسار فى الناس السيرة الحميدة ، واجتهد فى بناء المشاعر العظام . وكان قايتباى محتاطاً فى الوظائف الدينية كالقضاء والمشيخة والتدريس لا يولى شيئاً من ذلك الا الاصلح بعد التروى والتفحص » .

وقال عنه السخاوى : « وبالجملة لم يجتمع ملك من أدركناه ما اجتمع له ، ولا حوى من الخدق والذكاء والمحاسن بمثل ما اشتمل عليه ولا مفصله . وربما مدحه الشعراء ولا يلتفت إلى ذلك ويقول : لو اشتغل (أى الشاعر) بالمديح النبوى كان أعظم . وترجمته تحتل مجلدات وله تهجد وتعبد وأوراد وأذكار وتعفف وبكاء من خشية الله تعالى ، وميل لذوى الهيئات الحسنة ، ومطالعة فى كتب العلم والرقائق وسير الخلفاء والملوك ، والاعتقاد فيمن يثبت عنده صلاحه من العلماء والصلحاء » . اهـ .

سياسته وفتوحاته :

وعندما اعتلى قايتباى العرش ، وكان فى الستين من عمره ، كانت البلاد فى أشد حالات الفوضى والارتباك ، وخزائن الدولة خاوية

(١) شذرات الذهب جزء ٨ صفحات ٨٧

من الأموال . فعمل على إصلاح الحال ، وقبض على أزمة الأحزاب
والأمراء ، فاطمأنت البلاد ، وهدأت النفوس .

وإلى جانب حزمه ، كان كريم النفس إلى أقصى حد . فترك
السلطان السابق تماربوغا يسافر إلى دمياط بكامل حريته ومعه
أصدقائه ، ولم يحاول القبض عليه أو الحد من حريته . وكان قايتباي
يعامل أعداءه والسلطين المخلوعين بكل احترام . فكان يدعوهم إلى
حفلات السمر والرياضة بقصره ويسمح لهم بالحج إلى مكة ، بل إنه
كان يسمح لهم بزيارة العاصمة في غيابها بدون أى خوف أو شك
من ناحيته (١) .

وفي أوائل حكمه ، انقض « سوار » ملك الألبانيين (وهم من
التركان) على أملاك الدولة المصرية ، فجرد عليه قايتباي عدة حملات
باعت بالفشل . إلا أن الحملة الأخيرة التي قادها الأمير يشبك الدوادار
عام ٨٧٥ هـ تمكنت من دحر العدو ، ووصلت في زحفها إلى نهر
جيحون ، وأثناء الزحف وقع الملك « سوار » أسيراً بيد الشراكسة
فحملوه إلى القاهرة مصفداً بالأغلال ، ولولا أخاه على بلاده مكانه .
وما لبثت الأخبار أن جاءت بانتصار محمد الثاني العثماني على
أوزون ملك الفرش ، وخشى قايتباي أن يكون ذلك النصر مقدمة
للزحف على سوريا ، فسير إليها جيشاً قوياً ، ورابط عند الحدود

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية) جزء ٢ ص ٦٦١

(عام ٨٨٥ هـ) . وفي تلك السنة ، توفي السلطان العثماني ، وتخاصم ابناه بايزيد وجم على الملك ، وتمكن بايزيد من الانتصار على أخيه فحضر جم إلى مصر لاجئاً إلى قايتباي ، فأكرم وفادته وكان بايزيد ينتظر من قايتباي أن يسلمه إليه ، فغضب ، وهكذا استحكم العداء بين الطرفين ، وأخذ كل منهما يستعد للقتال .

فلما رأى قايتباي أنه لا مفر له من مقاتلة العثمانيين إذا أراد ضمان استقلال ملكه ، عول على الهجوم بدل الانتظار والدفاع . فحعل يناوىء الأتراك ، وقطع عليهم السبيل إلى مكة ، واستولى على أطنة وطرسوس (وكانتا في حوزة العثمانيين) . فأرسل بايزيد إلى قايتباي يطلب تعويضاً عما سببته الجنود المصرية من الخسائر . فرد قايتباي على هذا الطلب بتشديد الهجوم على العثمانيين ، وعزز جيشه بخمسة آلاف مقاتل ، فدحروا العثمانيين . وشق ذلك على بايزيد ، فأنفذ جيشاً لجبا تحت قيادة صهره أحمد ، إلا أن رجاله لم يستطيعوا الثبات في وجه الجيش المصري ، ووقع أحمد أسيراً . وكان يقود الجيوش المصرية في هذه الحروب الأمير الشركسي إزبك (أو الازبكي) فعاد بأسيره إلى مصر ظافراً ، وبني جامع المعروف بجامع الازبكية ، وهو الذي أنشأ كذلك حديقة الازبكية وكانت في أيامه بركة تتجمع فيها المياه في أيام الفيضان .

وعاد بايزيد إلى الهجوم مرة أخرى ، وجعل إمرة جيوشه هذه المرة بيد علي باشا . واستطاع علي باشا استرجاع مدينتي طرسوس

وأطنة ، فبعث قايتباى إزبك مرة أخرى لمحاربة العثمانيين ، فسار اليهم على رأس جيش كثيف وتمكن من قهرهم مرة أخرى ، وعاد إلى القاهرة ظافراً . وهنا لم يجد العثمانيون بداً من مصالحة قايتباى ، فعقدت الهدنة بين الطرفين ، وذلك عام ٨٩٦ هـ .

آثاره ومنشأته :

وعاش قايتباى بعد هذا الصلح خمس سنوات قضاهما في تعمير البلاد والسهل على رفاهية شعبه . وقد اشتهر بآثاره الخالدة في جميع أنحاء مصر والبلاد السورية . ومن أهم تلك الآثار جامعان أحدهما ضمن مقابر الخلفاء والآخر بالقرب من جامع ابن طولون . وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل الأمثلة لفن الزخرفة والعمارة الإسلامية . وقد طاف قايتباى بأرجاء مملكته ^(١) فرحل إلى سوريا والعراق وزار مكة وبيت المقدس وطاف أنحاء مصر ، وتجده أينما رحل يترك خلفه آثاراً تتحدث على عظمته . فن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة ^(٢) .

وفي عصر قايتباى أدخلت على فن المعمار تعديلات جديدة . فقد

(١) مما يؤثر عن قايتباى انه بالرغم من تقدمه في السن ، كان وافر النشاط جم الارادة فكان يخرج يوميا من القلعة للتريض على ظهر جواده . وكان دائم الحركة ، كثير التجوال في أرجاء مملكته .

(٢) تاريخ القاهرة في ألف عام للبكباشى عبد الرحمن زكى .

توسعوا في استعمال الحجر المنحوت وبنية الجدران الداخلية وزخرفوها بالنقوش الجميلة ، كما شيدت القصور العظيمة . وشاع في عصره عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلاً من عملها بواسطة الجص أو الملاط . والمنبر الحجري ذو النقش البديع الذي أقامه قايتباي عام ١٤٨٤م في مقام برقوق يعد في طليعة الأمثلة الفنية الرائعة التي تفخر بها القاهرة (١) .

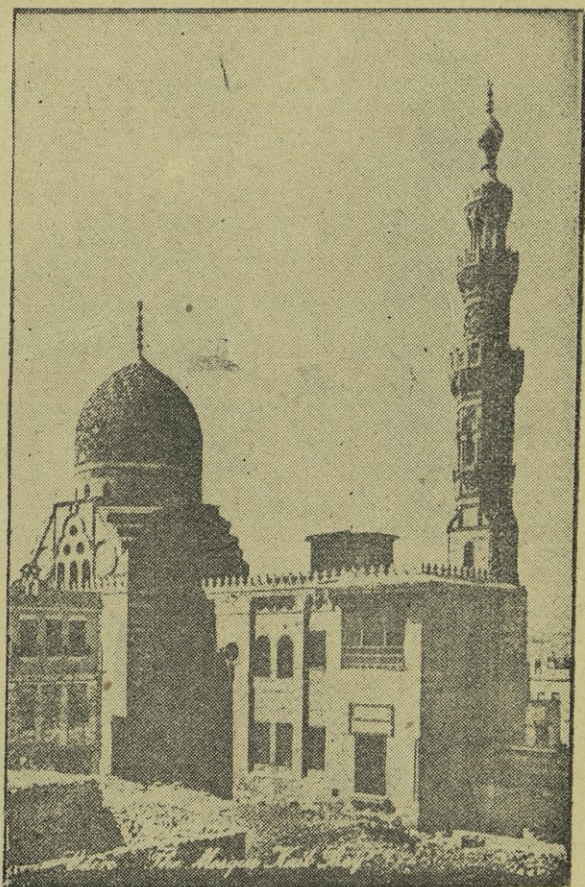
وكان قايتباي موفقاً في أعماله ، وقد فاق على جميع زملائه ذوقاً وهندسة . كما اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات . ودرس آثاره كلها يدعو إلى الإعجاب والدهشة . ولا تزال آثاره تجذب إليها المعماريين والزائرين من نواحي العالم . فضخامة مبانيها الباهرة والمآذن الدقيقة ، والقباب المزركشة ، والكرايش المصطفة ، والفسقيات الرخامية ، والنقوش الدقيقة التي كأنها من صنع يد أنسة رشيقة ، كل ذلك كمال في الذوق والوضع . (٢)

سياسته المالية :

جاء في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الإنجليزية) عن هذا الملك العظيم ما ترجمته : « لقد كان قايتباي أهم سلاطين الدولة البرجية (أي الشركسية) بمراحل . ففي عهده وصلت عظمة مصر الخارجية

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٩٨

(٢) نفس المصدر ص ٩٩



جامع السلطان قایتبای بمداخله

أوجها . وكان يحتاج للقيام بحملاته الحربية وإنشائه المدنية إلى المبالغ الجسيمة . وكان لا يستطيع جمع هذه الأموال بغير استعمال شيء من العنف لعدم وجود نظام ثابت متبع للضرائب وجبايتها في تلك العصور . وقد كان جمعه للمال سبباً لهجوم عنيف عليه من بعض معاصريه ، إلا أننا لو نظرنا إلى الأمر نظرة عصرية ، لوجدنا أنه لم يكن يستطيع أن يفعل غير ذلك لحاجته الشديدة للمال لسد نفقات الجيش .

« وكان السلاطين ، لعدم وجود نظام معين للضرائب في ذلك العصر ، يجمعون الأموال إما من رؤساء الخزينة الذين أثروا بوسائل غير مشروعة ، أو بأن (يزور) — أى السلطان — شيوخ المقاطعات ، فيقدمون إليه ما يحتاجه من (هدايا) كان بعضها لا يقدم عن طيب خاطر . ولكن السلطان قايتباي — لدهشة الناس واستغرابهم — كان يعيد كل المبالغ المجموعة لأصحابها الأصليين في حالة عدم تنفيذ الحملة أو المشروع الذى يكون قد جمع المال من أجله . . .

« وقد أنفق قايتباي خلال السنوات ٨٧٢ — ٨٩٤ هـ حوالى ٧٠٠٠٠٠ دينار (٧٠ مليون فرنك) على الجيش . كما إن مبادئه ومنشأته كانت تتكلف المبالغ الطائلة » . ١٠ هـ

من مآثره :

قال عنه صاحب شذرات الذهب (١) : « ومن مآثره : مسجد

الخير بنى ، وحفر بنمرة صريحاً ذرعه عشرون ذراعاً ، وعمر
بركة خليف ، وأجرى العين الطيبة إليها ، وأصلح المسجد الذى هناك ،
وأجرى عين عرفة بعد انقطاعها أزيد من قرن ، وعمر سقاية سيدنا
العباس ، وأصلح بئر زمزم والمقام ، وجيز فى سنة ٨٧٩ هـ المسجد
منبراً عظيماً . وكان يرسل للكعبة الشريفة كسوة فائقة جداً فى كل
سنة . وأنشأ بجانب المسجد الحرام مدرسة عظيمة وبجانها رباطاً
مع إجراء الخيرات لأهلها كل يوم ، وسبيلاً عظيماً للخاص والعام ،
ومكتباً للأيتام ، وكذا أنشأ بالمدينة النبوية مدرسة بديعة ، بل بنى
المسجد الشريف بعد الحريق ^(١) وعمل ببيت المقدس مدرسة كبيرة .
وعمر حصناً بالأسكندرية ^(٢) ومدرسة بالقرب منه ، وحصن ثغر
دمياط ، وحصوناً برشيد ، ورم الجامع الأموى بدمشق ، وعمر
بغزة مدرسة وجامعاً بالصالحية المعزية ، وجامع الروضة ، وجامع
الكيش ، وترتبة بصحراء مصر ، وقبة الإمام .

قال السخاوى « وتكرر توجهه للقدس ونغور دمياط
والأسكندرية ورشيد ، وأزال كثيراً من الظلمات ، وحج فى طائفة
قليلة سنة ٨٨٤ هـ ، ووهب وتصدق وأظهر من التواضع والخشوع

(١) سنة ٨٨٦ هـ — (المؤلف) .

(٢) سنة ٨٨٢ هـ — (المؤلف) .

في الطواف ما عد من حسناته. وأنفق أموالاً كثيرة في غزو الكفار
ورباط الثغور وحفظ الأمصار « ١ هـ .
معاملته لأهل الذمة :

أحسن قايماً بمعاملة أهل الذمة ، فنع عنهم الظلم ، وأعطاهم
كافة الحقوق التي منحها إياهم الإسلام .

من ذلك : أنه لما بلغه نبأ هدم كنيسة اليهود بالقدس الشريف
بأمر قاضي القدس الشهاب بن عينة وتحريض البرهان الأنصاري ،
أمر قايماً بإعادة بناء الكنيسة المهذومة ، واستدعاء القاضي وكل
من اشترك في عملية الهدم . فلما اجتمعوا لديه عنفهم على جرمهم ،
ثم أمر بضربهم ، فضربوا ضرباً شديداً (١)

وفاته :

وكانت وفاة هذا الملك العظيم آخر نهار الأحد سابع عشر
ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ ودفن يوم الاثنين بقبة بناها بترية الصحراء شرق
القاهرة ، (٢) بعد أن دام حكمه أكثر من تسعة وعشرين عاماً
وكان حزن الناس عظيماً لفقده .

وبعد وفاته بويع ابنه أبو السعادة محمد ولقب بالملك الناصر .

(١) الشذرات ، جزء ٨ ص ٨

(٢) في « تاريخ مصر الحديث » الجزء ٢ للمرحوم جورج زيدان أن وفاته
كانت في ٢٢ ذي القعدة ، ومدة حكمه ٢٩ سنة و٤ أشهر و٢٠ يوماً .

وتميز عصره بالفتن الكثيرة . وكان محمد لصغر سنه أحمق فلم يستطع أن يكبح جماح شهواته ، ولذلك لم تمض ستة شهور على توليته العرش حتى اجتمع الأمراء وعزلوه ، مبايعين بالسلطنة الأمير قانصوه بن قانصوه ولقبوه بالملك الظاهر .

الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه

(٩٠٤ — ٩٠٥ هـ أو ١٤٩٦ — ١٤٩٧ م)

لم يقبل قانصوه هذا المنصب الخطير إلا مرغماً ، فقد كانت البلاد في حالة قبض شديد ، وأمور الدولة مضطربة ، وقد علا نجمه بسرعة ، وتمكن من القيام ببعض الإصلاحات .

وهو من الذين افتداهم السلطان قايتباي ، وتثقف ثقافة حربية تامة في طباق القلعة المشهورة ، حيث كان يتخرج قادة الشراكسة وأمراؤهم . وكان نبهاً حازماً ، فاستطاع بعد ست سنوات من تخرجه أن يقفز الى كرسي الملك .

ومن أعماله الحربية : إرساله حملة تأديبية الى حلب ، وبلاد التركمان ، حيث انتشر فيها نفوذ غريمه « أقبردي » الدوادر وأعوانه ، فعادت تلك الحملة ومعها عدد كبير من أسراهم . (١)

وفي عهده قام البدو بغارات متعددة على المدن المصرية ، وحاميات الشراكسة ، فبعث اليهم قانصوه بجملة تحت إمرة طومان باي

الدوادار ، فهزمهم ، وشتت شملهم ، وقبض على الكثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة مكبلين بالأغلال . وبعد هذا النصر المبين ، تأمر طومان باى مع الأمير جان بلاط على خلع قانصوه ، وتمكننا من ذلك عام ٩٠٥ هـ ، وبويع جان بلاط (أو جانبولاد) بالسلطنة ، ملقباً بالملك الأشرف . فقبض على قانصوه وبتجنه بالاسكندرية . ولكن حكمه لم يدم أكثر من ستة أشهر ، إذ تأمر عليه شريكه طومان باى ، وتمكن بمساعدة بعض الجند من حصار السلطان بالقلعة ، والقبض عليه ، فنفاه الى الاسكندرية ، ثم قتله عام ٩٠٦ هـ ، واعتلى طومانباى كرسى السلطنة مكانه . إلا أن طومانباى كان مكروها لدسائسه الكثيرة ، ولاغتصابه العرش بدون مبايعة ، فلم تكذب تمضى ثلاثة شهور على اعتقاله العرش حتى أجمع الأمراء أمرهم على التخلص منه ، فقبضوا عليه ، وأعدموه .

بعد ذلك اجتمع الأمراء والأعيان وتشاوروا فيما بينهم فيمن يجب أن يختاروا للعرش ، وقد عزموا هذه المرة أن يولوا رجلاً لاثقاً يستطيع اصلاح ما فسد ، فاجتمع رأيهم على مبايعة قانصوه الرابع الملقب بالفورى ، فلما بلغ الفورى أمر مبايعته رفض قائلاً : « انى لا أخالف لكم أمراً انما أراى غير لائق بهذا المنصب لانى لم اعتد معاطاة الأحكام والأمر والنهى » . فأصرروا عليه القبول ، فقبل بعد تردد قائلاً « أكون فى غاية السرور إذا جئتمونى يوماً تنبؤونى بإقالة من هذا المنصب ، فأرجع الى ما اعتدته من معيشة السكينة » .

فولوه في غرة شوال سنة ٩٠٦ هـ ودمعه يجرى ، ولقبوه بالملك
الأشرف . (١)

الملك الأشرف قانصوه الغورى

(٩٠٦ — ٩٢٢ هـ أو ١٥٠١ — ١٥١٦ م)

فشأته :

ابتدأ الغورى حياته الرسمية بتعيينه خاصكياً (أى عضواً في

(١) وصف ابن اياس في تاريخه مبايعة الغورى بقوله : « فلما رأوا المجلس مانع (أى لم يستطع الاتفاق على أمر) تعصب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح والأمير مصر باى ، إلى قانصوه الغورى ، وقالوا ما نسلطن الا هذا . فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويكي ، وربما كلمه مصر باى ومزق طوق ملوخته ، وهو يمتنع غاية الامتناع . فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، وقاضى القضاة عبد الغنى ابن تقي المالكي ، والشهاب الشيشينى الحنبلى ، وتأخر قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا ، وبرهان الدين الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولوه السلطنة . فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر في خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى . وبايعه الخليفة . وكانت سلطنته في يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة .

ثم أحضر إليه شعار السلطنة ، وهى الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك . كل هذا وهو يمتنع ويكي ، فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما في علوه وأشرف ، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرقة بالنورى . ثم قدمت له فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التى يباب السلسلة ، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه ، وقد ترشح أمره إلى الأتابكية . فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش حتى طلع من باب ستر القصر الكبير وجلس على سرير الملك . ثم دقت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه في القاهرة الخ ... »

الحرس السلطاني) في عهد الملك جانبلاط . ثم عين حاجبا للحجاب (أى رئيسا للمحكمة العسكرية) في حلب حيث برزت مواهبه . فرقى إلى رتبة أمير مائة مقدم ألف ، وبعد عامين عينه السلطان رأس نوبة النواب . وفي عصر طومانباي ولى الغورى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية . فكان له بذلك إلمام تام بمناصب الدولة الرئيسية .

صفاته :

وصفه ابن أياس بقوله : « كان طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذا كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته شيب إلا قليلا .

» وكان ملكا مهيباً جليلاً مبجلاً فى المواقب ، ملء العيون فى المنظر . وكان يميل إلى الأبهة فى ملابسه ومواقبه ، كما كان ميالا للتنعم ، مولعاً بالفنون الجميلة . وكان يلبس فى أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، وكان ترفاً فى مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه .

» وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطياف المغردة ، ونشق الأزهار العطرة والبخور .

» وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء . وكان

يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهماً في الأكل ، وكان يغوى
طيور المسموع .

قال الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام بك : « هذه صفات تدل
على رقة الطبع ، ودقة الإحساس ، والولوع بالجمال ، والاستمتاع
بالعيش . ومن كانت هذه صفاته يبعد أن يكون ظالماً جباراً سفاكاً
للدماء ، قاسياً على الضعفاء » . (١)

وكان الغورى إذا أراد الاستراحة من عناء الملك خرج إلى
مقياس الروضة أو قبة الأمير يشبك ، وأحضر خواصه وبعض
المغنين والعازفين . وقد بلغ من شغفه بالغناء أنه ألف بعض
الموشحات ولحن بعض القصائد .

اسمه :

قال صاحب شذرات الذهب : (٢) « سماه ابن طولون «جندب» ،
وجعل قانصوه لقباً له . والغورى نسبة إلى طبقة « الغورى » ،
إحدى الطبقات التي كانت بمصر معدة لتعليم المؤددين » .

وقال الدكتور عبد الوهاب عزام بك في كتابه « مجالس السلطان
الغورى » : « إن الضبط الصحيح لهذا الاسم هو الغورى
بفتح الغين لاضمها ، وحجتى فى هذا أن الاسم كتب بهذا الضبط على
مصحف للسلطان فى « دار الكتب المصرية »

وقد ورد مثل هذا الكلام فى كتاب « المزارات الإسلامية »
الجزء الرابع . وفى رأينا أن هذا النطق هو الصحيح .

(١) مجالس السلطان الغورى — ص ١٥

(٢) جزء ٨ ص ١١٣

سياسته وفتوحاته :

وجه الغورى جهوده منذ أن اعتلى العرش إلى توطيد دعائم الأمن في البلاد ، وجمع الأموال للإنفاق على مشاريعه العمرانية والحربية . وقد تمكن من ذلك بأن فرض ضرائب جديدة على السفن والجمال واليهود .

وكان ذا رأى وفطنة ، كثير الدهاء ، قمع فتنة الأمراء وأذل المعاندين حتى اشتد ملكه وعظمت هيئته ، فهادنه الملوك وأرسلت إليه قصاصها . (١)

ويقول ابن اياس في تاريخه (حوادث ربيع الآخر سنة ٩١٨ هـ):

« ومن العجائب أن في هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً . وكل قاصد من عند ملك على انفراده . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف ابن الصوفى خليل أمير التركان ، وقاصد تونس ملك المغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركان ، وقاصد من عند نائب حلب ، وقاصد من عند حسين الذى توجه إلى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرنسية ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب . »

ومن أشهر أعماله السياسية ، تلك المعاهدة التي عقدها الغورى مع جمهورية فلورنسا بإيطاليا عام ٩١٠ هـ . وفيما يلي طرف منها : —
 « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمر السلطان السامى رفع الله شأنه وأعلى مقامه . إننا نعرف جميع الوكلاء والحكام وولاة المسلمين أن المؤدب « لويجي دبلاستوفا » المرسل من قبل السلطان حاكم الفلورنسيين ، تقدم إلى بابنا العالى وبعد أن أسعد بالجلوس فى حضرتنا السنية وعرض علينا باسم رئيسه الأشياء المتعلقة بأمره وتجارها والمعاهدات التجارية السابق عقدها مع السلاطين سلفائنا ، التمس من مراحمتنا تجديد المعاهدات المذكورة ، وتثبيتها بأمر سام منا . فبناء على ذلك أمرنا جميع عمالنا بأن يطيعوا أمرنا هذا ويقوموا بتنفيذ المعاهدات الآتى ذكرها بمزيد العناية والدقة . »
 وفى عصره كشف البرتغاليون الطريق البحرى إلى الهند حول القارة الافريقية (عام ١٤٩٨ م) ، فنقصت بذلك تجارة مصر وما كانت تجنيه من الأرباح . ولم يكفهم ذلك ، بل أخذوا يصادرون السفن المصرية ، ويهاجمون الشواطىء المصرية والبلاد التابعة لها ، فجهز الغورى حملة بحرية لمحاربة البرتغاليين وعقد لواءها للأمير حسين الكردى (عام ٩٠٩ هـ — ١٥٠٣ م) . الا أن هذه الحملة باءت بالفشل .

وقد تمكن الغورى فى هذه الأثناء من توطيد علاقاته بملك إسبانيا ، فعقد معه معاهدة صداقة وسلام . وقد حاول الغورى

استغلال هذه العلاقة الطيبة في الحد من عدوان البرتغاليين ،
فوسط ملك إسبانيا بينه وبين البابا لجملة على التأثير على البرتغاليين
لوقف عدوانهم . فلما لم تفلاح وساطة ملك إسبانيا ، أرسل الغوري
رئيس أساقفة سينا إلى البابا مع خطاب شكوى ، بثه بعض التهديد ،
ولكن بدون فائدة . وفي سنة ١٥٠٤ م دمر البرتغاليون
١٧ سفينة مصرية وعربية في الخليج الهندي . فأرسل الغوري قائده
الأمير حسين لتحصين ميناء جدة وسائر الشواطئ العربية ، وجعل جدة
قاعدة لأسطوله في الشرق . وفي سنة ١٥٠٨ م قامت معركة بحرية بين
الأسطول المصري وقائده الأمير حسين ، وأسطول البرتغاليين
بقيادة لورنزو . وقد انضم في هذه المعركة الأمير الهندي المسلم ديو
(Diu) إلى المصريين ، فهزموا البرتغاليين ، وقتلوا لورنزو
وأغرقوا سفينته . وفي السنة التالية انتقم البرتغاليون لهذه الهزيمة
النكراء ، وانسحب حسين بأسطوله إلى البحر الأحمر . فلهذه
البرتغاليون وهاجموا ميناء عدن ، ولكنهم ردوا على أعقابهم .

وفي أثناء هذه الحروب ، افتتح الكردي بلاد اليمن من ملوكها
بنى طاهر ، وترك بها نائباً اسمه « برسباي الجرکسی » . وعاد الأمير
حسين إلى مصر لتجهيز حملة جديدة لسحق قوات البرتغاليين نهائياً .
وسارت هذه الحملة الجديدة إلى الهند عام ٩١٧ هـ . ولكنها عندما
وصلت جدة ، كانت الأحوال السياسية والحربية قد تطورت في

سوريا ومصر نفسها تطوراً جديداً سريعاً ، إذ وجد الغورى نفسه أمام عدو جديد (١) .

ففى سنة ٩١٨ هـ ، استعد السلطان سليم بن بايزيد العثمانى لافتتاح مصر بعد قهره جيوش الفرس . واقترن ذلك بان تخاصم السلطان العثمانى مع أخيه كركود كما حصل بين بايزيد وجم قبلهما . فالتجأ كركود إلى الغورى فى مصر ، وطلب معوثته لاسترجاع عرشه ، على أن يكون حليفاً للغورى بعد ذلك . وقد رأى السلطان الغورى أن يد له يد المساعدة ، فجزه بعشرين بارجة حربية ، وسيرها على استانبول لافتتاحها . الا أن الأفرنج اعترضوا هذه السفن فى البحر ، وتمكنوا من تشتيتها . فعمد الغورى إلى مخابرة العثمانيين بالصلح وبعث برسله إلى السلطان سليم ومعهم تعليمات بالحصول على الصلح على أى وجه كان . الا أن السلطان سليم ، الذى أسكرته خمرة الانتصار أكثر من مرة ، قابل هؤلاء الرسل بجفاء ، وخاطبهم قائلاً : « لقد فات الأوان . ارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له ان القدم لا تعثر بحجر أكثر من مرة . وها انذا ذاهب لافتتاح القاهرة . فليستعد للدفاع إن كان له أهلاً . »

(١) وأما الكردى ، فقد أصدر السلطان سليم العثمانى أوامره إلى شريف مكة بقتله ، فأخذه شريف مكة غيلة وقيده وأرسله إلى البحر قرب جدة حيث أغرقه . وهكذا كانت نهاية هذا القائد البحرى العظيم .

سار سليم بعد ذلك على رأس جيش كبير ، مجهز بالمدافع الحديثة ، ووجهته سوريا . وكان الغورى قد جمع جيشه وسار على رأسه لمواجهة الترك الزاحفين . فالتقى الجيشان بالقرب من حلب عند مرج دابق في أغسطس سنة ١٥١٦ م . واستطاع فرسان الشراكسة الشجعان أن يسجلوا انتصاراً جزئياً في أول المعركة . إلا أن الحيانة دبت في صفوفهم ، فانسحب من المعركة كل من خاير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب حماة ، وتركوا الغورى يقاتل بجيشه الذى خرج به من مصر ، فهزمت جيوشه ، وأوقعت بها المدفعية العثمانية خسائر فادحة ، ولم يكن سلاح الشراكسة غير السيف والحراب والرمح (١) . وسقط الغورى نفسه قتيلاً تحت أرجل الخيل في ٢٥ رجب سنة ٩٣٢ هـ بعد أن حكم مدة ١٥٧ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوماً .

أعماله ومنشأته :

يعود الفضل إلى السلطان الغورى في تنشيط الزراعة في مصر ، وخصوصاً زراعة الفواكه . فقد استجلب الأشجار والغرس من البلاد المجاورة ، وخط كثيراً من البساتين ، وشق إليها الترع ، فازدهرت الحالة الزراعية في البلاد ، وغنى الزراع .

ومن أهم منشأته في القاهرة ، ميدان القلعة . وعنه يقول ابن اياس في حوادث جمادى الآخرة سنة ٩١٤ هـ ما يلى :

(١) الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢

« وفيها كان انتهاء العمل في المجرة التي أنشأها السلطان كما تقدم ، فدارت هناك الدواليب وجرى المساء في المجرة حتى وصل إلى الميدان الذي تحت القلعة .

« ثم إن السلطان صنع هناك سواقى نقالة . وبني ثلاثة صهاريج تمتلئ من ماء النيل برسم الأمراء الذين يلعبون الرمح في الميدان . وشرع في بناء بحيرة في وسط ذلك البستان الذي أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك البحيرة نحو من أربعين ذراعاً ، وقيل أكثر من ذلك . وبني هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان » .

وقال في حوادث ذى الحجة سنة ٩١٥ ما يلي :

« وفي هذه السنة أينعت الأشجار التي غرسها السلطان بالميدان وأخرجت ما شتله بها من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان وغير ذلك من الأزهار الغريبة . ولقد عاينت به ورداً أبيض ذكي الرائحة وهو غير أنواع الورد التي بمصر وقد نقل من الشام . وكان يطرح في أوان الصيف والنيل في قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر .

« فكان السلطان يوضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعد مخمل بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين ، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ويعلق في الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وבלابل

وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة .

وقال صاحب شذرات الذهب : « وكانت فيه (أى السلطان) خصال حسنة . وكان يصرف لمطبخ الجامع الأزهر فى رمضان ٦٧٠ ديناراً و ١٠٠ قنطار عسل و ٥٠٠ أردب قمح . وفى أيامه بنى دائرة الحجر الشريف ، وبعض أروقة المسجد الحرام ، وباب إبراهيم ، وجعل علوه قصرأ شاهقاً وتحتة ميسأة . وبنى عدة خانات وآبار فى طريق الحج ، منها خان فى العقبة والأزم . وبنى مبرسة بسوق الجبلون بالقاهرة والتربة المقابلة لها والمأذنة المعتبة بالجامع الأزهر ، والبستان تحت القلعة ، والمنزه العجيب بالملقة ، وأنشأ مجرى الماء من مصر إلى القلعة ، وعمر بعض أبراج الإسكندرية ، وغير ذلك من جوامع وقصور ومنتزهات . »

ولعل من أهم آثاره الخالدة الجامع والقبسة والسبيل التى فى الغورية ، وجامع القلعة ، وخان الخليل ، وقصر المقياس فى الروضة ، وقاعة العواميد والدهيشة فى القلعة .

وفى تاريخ ابن إياس عن الغورى وأعماله ما يلى :

« ثم إن السلطان نقل المصحف العثمانى إلى مدرسته أيضاً ، وعد ذلك من النوادر . ثم نقل إلى المدرسة أيضاً الربعة العظيمة المكتوبة

بالذهب التي كانت بالخانقاه البكتيرية التي بالقرافة . قيل إن مشتراها على الواقف ألف دينار . ولم يكتب نظير هذه الربعة سوى ربعة أخرى بخانقاه سرياقوس اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاوون بألف دينار أيضاً ، وأخرى بالمدينة الشريفة .

« وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى فى مدرسته من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود . » ولما نقل الآثار الشريف والمصحف العثمانى إلى مدرسة السلطان كان له يوم مشهود ، ونزل قدومه القضاة الاربعة والاتباع قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا والأعلام وهم يذكرون . »

وقد أنشأ الغورى غير ذلك كثيراً من القلاع والجسور والترع والسبل ودور اليتامى ، ولا زالت بعض آثاره باقية إلى اليوم تدل على عظمة منشئها ومبلغ التقدم فى عصره .

طرف من سيرته :

كان الغورى برأ بالفقراء كثير الصدقات وكان يحب أن يتصدق على الفقراء بيده . ومن ذلك قول ابن إياس فى حوادث الحرم سنة ٩١٢ هـ :

« وفيه يوم عاشوراء أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج فاجتمع هناك الجمل الغفير من الفقراء والحرافيش

ونزل السلطان بنفسه ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج وصار يعطى لكل إنسان من الفقراء من رجل وامرأة وكبير وصغير أشرفى ذهب ، فوقع الازدحام بين الفقراء حتى قتل منهم ثلاثة أنفار من شدة ازدحامهم . وقيل أنه فرق في ذلك اليوم نحواً من ثلاثة آلاف دينار .

وكان الغورى شديد المحافظة على الدين والأخلاق ، وقد أمر الناس بالابتعاد عن المعاصى ، ومنع حمل السلاح بعد المغرب ، كما أمر بالمواظبة على الصلوات الخمس فى الجوامع (١) .

وقد أجمع ابن اياس صفاته الخلقية فى تاريخه بقوله : (٢)
 « فأما ما عدا من محاسنه : فإنه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب ، وليس له بادرة بحدّة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الصالحين والفقراء . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه . ومنها إنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء ، وله نظم على اللغة التركية . وكان مغرماً بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار . وكان قريباً من الناس يحب المزاح والمجون فى مجلسه . غير كشيء الطبع فى ذاته . وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك . ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس . »

(١) تاريخ ابن اياس — حوادث رجب سنة ٩١٥ هـ

(٢) » » » — حوادث رمضان سنة ٩٢٢ هـ

عليه ومعارفه :

كان الغورى ذا حظ كبير من المعارف العامة والعلوم الدينية حتى إنه كان يبذل في هذا الميدان كثيراً من الفقهاء . وكان خبيراً في النحو والبلاغة ، مولعاً بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص ، وكان له نظم وألحان يتغنّى بها ، ويعرف لغات عديدة منها : العربية والشركسية والتركية والفارسية والأرمنية والكردية . (١)

وفي أواخر القرن التاسع الهجرى قدم القاهرة رجل عربى الأصل شريف النسب اسمه حسين بن حسن بن محمد الحسينى الآمدى ، وقد اتصل بالسلطان الغورى ، فأمره السلطان بترجمة الشاهنامه إلى اللغة التركية ، فامتلأ بأمره ، وأتمه في عشرين سنة آخرها سنة ٩١٦ هـ . وكان للسلطان الغورى مجالس تجمع العلماء والقضاة وأكابر الدولة وتطرح فيها للبحث مسائل شتى . وقد سجل الشريف المذكور كثيراً من مسائل هذه المجالس في كتابين يصوران تصويراً حسناً كثيراً من أحوال مصر في عهد السلطان الغورى هما : كتاب نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية ، والثانى اسمه السكوكب الدرى في مسائل الغورى . (٢)

ألقاب الغورى :

وفى يلى ألقاب الغورى كما جاءت فى كتاب « نفائس المجالس السلطانية » : —

(١) النفائس ص ١٣٣

(٢) تجل مختارات من هذين الكتابين فى كتاب « مجالس السلطان الغورى »

للككتور عبد الوهاب عزام بك .

« ظل الله في الأرضين ، ناظر حرم رب العالمين ، سلطان العرب والعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر عباد الله ، أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين . الملك الأشرف عزيز مصر ، أبو النصر ، قانصوه الغورى أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره . »

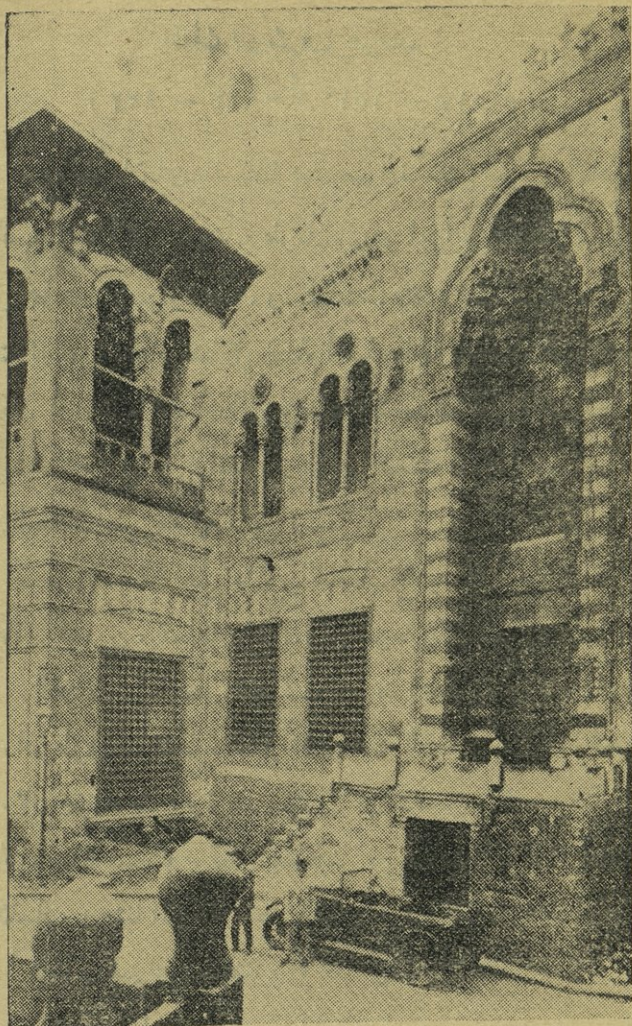
رأى الغورى في أصل الشراكسة :

سئل الغورى مرة : ما معنى الجر كس ؟ فأجاب : أصل الجر كس هو صار كس . جاء ببني غسان في خلافة عمر بن الفاروق رضى الله عنه وأسلبوا وحجوا . وكان سلطانهم في الطواف وقدم فقير عليه فدفعه فوق ومات الفقير . فجاء جماعة الفقير وطلبوا من القاتل الدم فحكم عمر بقتل القاتل أو يرضيهم وما رضوا منه إلا بقتله .

قال السلطان : أمهلوني ثلاثة أيام . وفي ذلك الليل هرب وجاء عند هرقل القيصر وتنصر فبعثهم هرقل الى بلاد الدشت ، والجر كس من نسلهم (١) .

والظاهر من ذلك ، أن الغورى كان يريد أن ينسب الشراكسة للعرب ، وكان ذلك لغرض سياسى محض . والحكاية التى ذكرها الغورى هى حكاية جبلة بن الأيهم مع عمر بن الخطاب ، مع بعض التحريف .

(١) نقائس المجالس السلطانية . راجع « مجالس السلطان الغورى » للدكتور عبد الوهاب عزام بك .



إحدى وجهات جامع السلطان الغورى

الملك الأشرف طومان باى

(٩٢٢ — ٩٢٣ هـ أو ١٥١٦ — ١٥١٧ م)

بويغ طومان باى بالسلطنة بعد وصول نبأ مقتل الغورى القاهرة،
ولقب بالملك الأشرف أيضاً. وطومان باى هو ابن أخى السلطان السابق،
وفى شجاعته، وغزارة علمه، واستقامته. وقد وجد نفسه عند
اعتلائه العرش أمام مشا كل جسام أهمها معالجة الغزو العثماني لبلاده.
فكان أول شيء عمله أن أمر بإعداد حملة جديدة لمحاربة العثمانيين،
واستعد للخروج على رأسها. وبينما هو كذلك، إذ وصله خطاب
من السلطان سليم جاء فيه ما يلي: —

« من السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان سلطان البرين
وخاقان البحرين، السلطان الخ... الى طومان باى الشركسى.

« الحمد لله. أما بعد، فقد تمت إرادتنا الشاهانية وباد اسماعيل
شاه المهرطوق. أما قنصوه الكافر الذى حملته القحّة على مناوأة الحجاج
فقد نال جزاءه منا، ولم يعد لدينا إلا أن نتخلص منك، فإنك جار
معاد، والله سبحانه وتعالى يساعدنا على معاقبتك. فإذا أردت
اكتساب رحمتنا الملوكية اخطب لنا واضرب النقود باسمنا وتعال
لمى أعتابنا وأقسم على طاعتنا والإخلاص لنا وإلا...»

فلما قرأ طومان باى هذا الخطاب استشاط غضباً وصمم على
القتال، فيما أن يهلك أو ينقذ بلده ومملكه.

سقوط القاهرة :

أما السلطان سليم ، فاستأنف زحفه على مصر ، واحتل غزة والعريش ، متجهاً نحو القاهرة . فخرج إليه طومان باى ، والتحم الجيشان فى سهل قرب بركة الحج يوم الجمعة فى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، واقتتلا طويلاً . وقد أظهر الشراكسة وقائدهم طومان باى فى هذه المعركة بسالة متناهية ، ولكن مدافع العثمانيين غلبت شجاعتهم ، ففروا عائدين إلى القاهرة ، وزحف العثمانيون حتى احتلوا الروضة . فعاود طومان باى الهجوم بمساعدة بعض العربان الذين أغراهم بالمال ، ولكن هجومه فشل هذه المرة أيضاً لنفس السبب . فعاد إلى القاهرة وتحصن بها ، وأقام فى كل شارع وكل بيت طابية ، وحمل السلاح كل من يستطيع حمله للدفاع عن الوطن . إلا أن العثمانيين تمكنوا — بالرغم من كل ذلك الاستعداد — من التغلب على جنود طومان باى ، واحتلوها عنوة ، وأمعنوا فيها قتلاً وحرقاً وتخريباً .

إلا أن احتلال القاهرة قد كلف العثمانيين خسائر فادحة ، وفقد السلطان سليم وزيره الأول سنان باشا فى المعركة . وقد تمكن طومان باى من إحراز عدة انتصارات جزئية ، إلا أن استعمال العثمانيين للبارود (ولم يكن معروفاً بعد فى مصر) غير وجه التاريخ ، وقلب الميزان لصالح الغزاة .

وبعد استيلاء العثمانيين على القاهرة ، التجأ طومان باى إلى الدلتا ، واختبأ عند العربان ، فخانوه وسلموه للسلطان سليم ، مغلول

الأيدي ، وقد علا وجهه القنوط لما حل ببلاده من الذل والدمار .
وبعد عشرة أيام أمر السلطان سليم بقتله ، فشنقوه في ١٩ ربيع
أول سنة ٩٢٣ (١٥١٧ م) على باب زويلة ، وعلقوا جثته بكلاب
من حديد ، وبقيت معلقة عدة أيام ، إلى أن أمر السلطان سليم
بإنزالها وصرح بالدفن .

* * *

هكذا انتهت دولة الشراكسة في مصر ، وأصبحت مصر منذ
ذلك التاريخ إيالة عثمانية .

أهم الآثار التي شيدت في عهد دولة الشراكسة من سنة ٧٨٤ الى ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

موقعها	تاريخها الميلادي	تاريخها الهجري	أسماء الآثار
شارع النحاسين	١٣٨٦ - ١٣٨٤	٧٨٨ - ٧٨٦	خانقاه الظاهر برقوق (جامع) ...
» قايتباي بمدافن الخلفاء	١٤١١ - ١٤٠٠	٨١٣ - ٨٠٣	» وتربة الظاهر برقوق (جامع) ...
» التبتكية بالجمالية	١٤٠٩ - ١٤٠٧	٨١١ - ٨١٠	مدرسة جمال الدين الاستادار (جامع) ...
» السكرية	١٤٢٠ - ١٤١٥	٨٢٣ - ٨١٨	الجامع المؤيدي ...
سكة الكومي بالحجر	١٤١٨	٨٢١	الليارستان المؤيدي ...
شارع الأشرافية	١٤٢٤ - ١٤٥٣	٨٢٧ - ٨٢٦	جامع الأشرف برسباي ...
» المغربين	١٤٢٧	٨٣٠	جامع جاني بك ...
صحراء قايتباي (مقابر الخلفاء)	١٤٣١	٨٣٥	خانقاه الأشرف برسباي (جامع) ...
شارع السلطان أحمد بقرافة قايتباي	١٤٥٦ - ١٤٥١	٨٦٠ - ٨٥٥	تربة السلطان ينال (جامع) ...
» الحرفش	١٤٥٦ - ١٤٥١	٨٦٠ - ٨٥٥	رباط زوجة السلطان ينال ...
» قايتباي	١٤٧٥ - ١٤٧٢	٨٧٩ - ٨٧٧	آثار السلطان قايتباي ...
» أم الغلام	١٤٨٩	حوالي ٨٩٥	مدرسة ابن برديك (جامع محمد بن برديك) ...
» قلعة الكباش	١٤٧٥	٨٨٠	مسجد السلطان قايتباي ...

(تابع) أهم الآثار التي شيدت في عهد دولة الشراكسة من سنة ٧٨٤ الى ٩٢٣ هـ (١٣٨٢-١٥١٧ م)

موقعها	تاريخها الميلادي	تاريخها الهجري	أسماء الآثار
شارع الأهر	١٤٧٧	٨٨٢	وكالة السلطان فايتباي
» باب النصر	١٤٨٠	٨٨٥	وكالة فايتباي
» شيخون	١٤٧٩	٨٨٤	سبيل وكتاب فايتباي
» العباسية	١٤٨١-١٤٧٩	٨٨٦-٨٨٤	قبة القداوية
سكة المارداقي	١٤٩٣-١٤٩٢	٨٩٨-٨٩٧	بيت السلطان فايتباي
ميدان بيت القاضي	١٤٩٦	٩٠١	مقعد ماماي (مقعد بيت القاضي)
شارع باب الوزير	١٥٠٣-١٥٠٢	٩٠٨	جامع وسراي خايربك
ميدان صلاح الدين	١٥٠٣-١٥٠٢	٩٠٨	مدرسة فانباي أمير آخور (جامع)
شارع الناصرية	١٥٠٥	٩١١	مدرسة فانباي أمير آخور (الرماح) (مسجد)
» القورية	١٥٠٤-١٥٠٣	٩١٠-٩٠٩	مدرسة وترية وسبيل ومقعد السلطان الغوري
» التبليطة	١٥١٢-١٥١١	٩١٧	وكالة السلطان الغوري
خان الحليلي	١٥١٢-١٥١١	٩١٧	أبواب خان الحليلي
شارع السلطان أحمد بقرافة فايتباي	١٥٠٧-١٥٠٥	٩١٣-٩١١	تربة قرقاس أمير كبير

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

فى عصر الدولة الشركسية

مع تراجم مختصرة لأشهر رجال هذا العصر

السلطان :

كان مقر إقامة السلطان وأسرته فى القلعة. وكان المسئول الأول عن الدولة، والمهيمن على شؤونها. ويساعد السلطان فى الحكم مجلس مكون من تسعة أشخاص ، وردت ألقابهم فى صفحة سابقة من هذا الكتاب . وكان بيد هذا المجلس إعلان الحرب وإبرام الصلح . إلا أن السلطان متى كان قوياً مرهوباً ، كان يفرض إرادته على سائر الأمراء ، ويستأثر بالسلطة المطلقة .

ولم يكن للسلطنة نظام قائم . وكان كل أمير أو زعيم أو قائد أهلاً للعرش ، متى توفرت فيه الصفات المطلوبة . فإذا اجتمع رأى الأمراء والزعماء على واحد ، بايعوه بالسلطنة مدى الحياة ، ولقبوه بألقاب منها : الناصر ، الأشرف ، المنصور ، الظاهر ، المؤيد وغيرها من ألقاب الملك .

وكما كان الأمراء هم أصحاب الأمر فى تولية السلطان ، كانوا هم كذلك أصحاب الأمر فى خلعه . وكان الخلع يتم لاكثر من سبب واحد ، أهمها عدم صلاحية السلطان للحكم والتنافس على العرش .

وكان الأمراء ينقسمون أحياناً فيما بينهم عند المبايعة ، وفي هذه الحالة يتولى العرش السلطان الذى تسنده أقوى الاحزاب . ولما كان الأمراء فى الغالب ذوى نفوذ على الجند ، لذلك كان للجيش أثر كبير فى تولية السلطان أو عزله .

ولكى تصبح بيععة السلطان تامة ، كان يبايعه الخليفة والقضاة الأربعة . ولكن حدث أن تمكن السلاطين من خلع الخلفاء بل وبيعتهم أيضاً ، كما حدث للوائق بالله ، وكانت بيععة الخليفة فى الغالب صورية ، إذ كانوا يبايعون من اتفق الأمراء على توليته .

الوزراء :

ألغيت الوزارة فى عهد برقوق مؤسس الدولة الشركسية ، وأنشأ - كما تقدم - مجلس السلطنة من تسعة أمراء .

وقد أعيد تشكيل هذا المجلس على أوجه أخرى فى عصور من خلفه من السلاطين .

الولاية والحكام :

كان سلاطين الشراكسة يقيمون الولاية على الأقاليم المصرية ، و « الأمراء » على الولايات الخارجية (السورية وغيرها) . وهؤلاء الولاية والأمراء يقسمون يمين اطاعة للسلطان ، ولكنهم كثيراً ما كانوا يشتركون فى الثورات ضد العرش ، ويرجعون كفة على أخرى ، ولذلك كان يصيبهم من العزل والتولية الشيء الكثير .

القضاة :

كان يتولى الإدارة القضائية في السلطنة أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وهؤلاء يختارون نوابهم في أنحاء السلطنة المصرية . إلا أن سلطة هؤلاء القضاة لم تكن تتمتع المدنين ، إذ كان للجيش قضاته ، وكان كل منهم يعرف باسم « قاضى العسكر » .
ويلى القضاة فى الأهمية ، مفتو دار العدل ، وعددهم أربعة أيضا يمثلون المذاهب الأربعة .

وقد بلغ راتب القاضى فى ذلك العصر خمسين ديناراً ، بخلاف ما كان يحصل عليه من الأوقاف المنتظر عليها ، وما كان يجرى عليه من طعام وكساء .

وقد اشتهر قضاة هذا العصر بأنهم ما كانوا يقبلون الرشوة أو الهدية ، كما عرفوا بطهارة الذمة والمحافظة على هيبة القضاء واستقلاله .

الجيش :

كان يقود الجيش أمير يسمى « أتاك » . وكثيراً ما كان الاتاك يقفز الى كرسي السلطنة بسبب نفوذه على العسكر .

وكان يتألف الجيش من فرسان الشراكسة ، ولم يسمح لغيرهم بالانخراط فى صفوف الجيش العاـمل ، فقصروا بذلك الجندية على أنفسهم .

وكان جميع الأمراء بلا استثناء يعتبرون أعضاء عاملين في الجيش .
وكان اكل خمسة جنود عزيز ، وكذا لكل عشرة . ولكل
أربعين فارساً «أمير» يدعى «أمير طبخانه» . وقائد المائة كان يسمى
أمير مائة مقدم ألف (أى يتقدم على ألف أمير) . وهذه الرتبة تلى
الاتابكية في الأهمية . وبلغ عدد أمراء المائة في عهد السلطان
الغورى ستة وعشرين أميراً .

وكانت تمنح الرتب العسكرية في احتفالات عظيمة ويمنح الأمير
الجديد خيلاً وقماشاً ومالاً ويفرد له إقطاع جديد يناسب لقبه .

وأما أسلحتهم فكانت السيف والرمح والخنجر والقوس
والبلطة والفأس والمنجنيق والنار اليونانية . وكانوا يلبسون الزرد
والخوذ في المعارك ، ويصنعونها في مصر .

وكان قواد الجيش وأمرأؤه يتلقون ردوسهم الحربية في « طباق
القلعة » ، وكانت الفروسية في أيامهم فنا عظيم الشأن ويقضون أوقات
فراغهم بالتدرب عليها ، أو تنظيم حلقات المبارزة ، والمصارعة ،
فكانت فنون الحرب أحب الهوايات إلى نفوسهم .

وكانت تصاحب الجيش فرق الموسيقى ، كما كان لكل فرقة علمها
الخاص ، تتميز به ، وتلتف حوله ، وتقاتل من أجل الرمز الذي
يهدف إليه ، وهو : الوطن .

وقد عنى سلاطين الشراكسة بالبحرية أيما عناية ، وقاموا بكثير من الغزوات البحرية الموفقة ، كما تقدم ذكره .
أشهر القادة (الأتابكة) :

ولما للأتابكة من الأهمية في إدارة شؤون الدولة وتوطيد سلطانها ،
نورد فيما يلي تراجم مختصرة لأهمهم :

١ — ينال اليوسفي — أتابك السلطان برقوق ، وكان في يوم ما من الثائرين عليه ، ثم اختلف مع برقوق على أمر ما ، فعزله ، وعين مكانه الأمير كمشبغا الحموي .

٢ — كمشبغا الحموي — قام بعدة غزوات موفقة ضد منطاش عدو السلطان ، وأحمد ثورة بعض قبائل العربان ، وكان قبل تعيينه في منصب الأتابكية أميراً لحلب في سوريا .

٣ — يبرس الركني — كان دوا داراً في عهد السلطان برقوق ، وهو قريبه . وكانت له يد طويلة في إخماد بعض الفتن الداخلية ، ولما توفي برقوق ، ثبته ابنه فرج على الدوادارية ، ثم رقاها إلى رتبة الأتابكية بعد فرار الأتابكي السابق إيتمش إلى دمشق .

وقد اشترك يبرس الركني في حملات السلطان لصد زحف التتار بقيادة تيمورلنك . وأبلى في هذه الحروب بلاء حسناً .

٤ — جرباش الشركسي المحمدي — كان أميراً لليواخير في عهد

السلطان ينال العلائى ، ثم رقاہ السلطان إلى وظيفة «أمير المجلس» .
وفى عهد السلطان احمد بن ينال ترقى إلى رتبة أمير سلاح عوضاً عن
الأمير خوش قدم الذى رقى إلى رتبة الاتابكية . ولما آلت السلطة إلى
خوش قدم رقاہ إلى رتبة الاتابكية مكانه (عام ٨٦٥ هـ) .

وكان محبوباً من الأمراء ، مهيباً محترماً حتى أن الأمراء أجمعوا
أمرهم على تعيينه سلطاناً بديل خوش قدم (وهو كافر من أصل يونانى) .
فلما علم جرباش برغبة الأمراء اختفى عن عيونهم فى تربة الظاهر
برقوق ، ولسكنهم لحقوا به ، ولما وجدوه استلوا سيوفهم وأكروهه
على الركوب معهم ، ونشروا فوقه أعلاما سلطانية ودخلوا بهذا
الموكب مدينة القاهرة من باب النصر ، ولذلك لقبوه بالملك الناصر .
إلا أن هذه الخطة لم يحكم وضعها ولا تنفيذها ، ففكك خوش قدم
بالموكب ، وقبض على جرباش ، وكان السلطان يقدره فأكرمه ،
وأمره بأن يبقى فى القاهرة ، فقضى بقية حياته متعطلا حتى وافته
منيته فى رمضان سنة ٨٧٧ هـ عن واحد وتسعين عاما .

وزوجته بنت السلطان فرج بن برقوق . وكانت شقراء ، عرفت
بالملاحة والجمال المتناهى .

٥ — الأمير يشبك بن مهدى — وكان من أشجع رجال هذا

العصر وأبعدهم همّة ، أبيض ، مستدير الوجه ، أشقر الشعر ، حلو
الملاح . عينه السلطان قايتباى أتابكا فى ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ ،

وأُسند إليه بالإضافة إلى ذلك منصب الوزارة . وإليه يعود الفضل في إطفاء ثورة العربان في الوجه القبلي ، وعربان الوجه البحري من بعدهم .

وقد بلغ من ثقة السلطان به أن زوده عند خروجه على رأس الحملة لمحاربة ملك الأبلستين (١) بخمسمائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها ما يشاء من الأوامر والتعيينات . وأضاف إلى منصبه منصب الدوايرية . وقد تمكن يشبك من سحق جيوش عدوه وأكره ملكهم سيوار على التسليم بعد محاصرته في القلعة ، وأحضره أسيراً إلى القاهرة بعد أن ولى أخاه مكانه مع خضوعه لسلطان مصر . وبعد عودة يشبك إلى القاهرة مع أسراه ، لقيه الناس أحسن لقاء ، وزينوا المدينة ، وفرشوا له الأرض .

وبعد شهرين من انتهاء هذه الحملة ، أرسله السلطان في حملة جديدة لمحاربة ملك العراق ، وكان يغير من حين لآخر على أملاك السلطان في سوريا ويغزو مدنها ، فسار يشبك على رأس هذه الحملة الجديدة ، وعددها لا يزيد على ألفي جندي . فبلغ بهم مدينة حلب ، وحارب ملك العراق المدعو حسن الطويل ، وأجلاه عن الأقطار السورية كلها . ثم قفل عائداً إلى مصر ، فبلغ القاهرة في رمضان سنة ٨٧٨ هـ .

(١) وهم من التتركان . وقد بلغت حدود مملكتهم أطراف العراق الشمالية .

وقد سحب يشبك السلطان قايتباي في رحلته إلى بيت المقدس عام ٨٨٠ هـ .

وفي عام ٨٨٢ هـ ، تفرغ الأمير يشبك لبعض المشاريع العمرانية . فوضع مشروعا اصلاحياً استغرق تنفيذه زمناً طويلاً ، وتضمن انشاء طرق جديدة ، وتوسيع القديم منها ، وإقامة الاسواق وبناء المدارس ، ونزع لهذا السبب ملكية بعض الاراضي ، فتألم بعض الناس وتذمروا ، على ما فيه من مصلحة عامة تعود على الجميع .

وبما يؤخذ على يشبك أنه كان جباراً لا يرحم ، يأخذ المعتدين بالقصاص الشديد . من ذلك تعذيبه لأمين بيت المال إثر اكتشاف سرقة الأموال الدولة ، فقد قيل أنه ضربه نحو ٢٦٠ عصاً ، وخلع أضراسه ، حتى مات الرجل من شدة التعذيب .

وقد ثار في عهده الهوارة - وهم من قبائل الصعيد - فخرج إليهم ، وعاد سنة ٨٨٣ هـ ومعه زعماء الفتنة مصفين بالأغلال ، فحukumوا وحكم بإعدامهم .

وقد قدر لهذا الأمير العظيم بأن يموت قتلاً بيد أعداء الدولة . إذ سافر في سنة ٨٨٥ هـ على رأس حملة جديدة لافتح العراق ، وكان الملك يعقوب بن حسن الطويل قد استأنف الهجوم على الأراضي السورية ، ولكن الحظ خانه هذه المرة ، إذ توغل في الأراضي

العراقية حتى مدينة الرها ، وابتعد عن قواعده ، فدارت عليه الدائرة ، ووقع أسيراً بيد أعدائه ، الذين سلّوه إلى ملكهم ، فأمر بقطع رأسه ، وعمره إذ ذاك ستة وخمسون عاماً .

وقد أحضرت جثته بعد ذلك إلى مصر ، ودفنت في تربته عند زاوية كهنبوش .

وقد وصفه ابن اياس في « بدائع الزهور » بأنه من الامراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد ، وله مبرات عديدة ، ومعاونات جمّة للحجاج وغير الحجاج . وهو مع قساوته على أعداء النظام والمخلين بالأمن ، كان كريم النفس ، كريم اليد . وبما يؤثر عنه أن رأى مرة فلاحاً ومعه قفّة بها بيض . فسأله يشبك : كم بيضة معك ؟ فأجاب الفلاح : عشرون . وتبسط معه يشبك ، ففهم أن عنده ثلاث بنات ، وزوجة . فأخذ منه يشبك البيضات العشرين ونقده عشرين ديناراً ذهباً .

٦ — الأمير أقبردى الدوادار — كان من أقطاب الحرب والسياسة

في عصره . تولى الوزارة ، والدوادارية ، وإمرة السلاح ، وعينه الملك الاشرف قايتباى « مديراً للدولة » لما لمس من نشاطه وحسن تدبيره وحنكته ، وزوجه أخته ، عام ٨٨٧ هـ .

وقد اختاره السلطان قايتباى للقضاء على فتنة جبل نابلس ، فأخذها . ثم أرسله السلطان عام ٨٩٢ هـ لإخماد ثورة عربان الأحامدة .

فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسر منهم عدداً كبيراً . كما اشترك بعد ذلك في إخماد ثورة داخلية حاول القيام بها جماعة من الامراء . وفي عام ٩٠٤ هـ عينه السلطان نائباً في طرابلس ، غير أنه توفي بعد قليل ، وعمره أقل من ٥٠ سنة .

ومما يذكر أن إبنة أقبردى تزوجها طومان باى الذى أصبح سلطاناً بعد مقتل الغورى .

٧ — جاني بك قلقسير — كان حاجب الحجاب فى أوائل عهد السلطان خوش قدم . ثم أرسله السلطان إلى العقبة لتأديب عربانها الثائرين (أوائل سنة ٨٧٢ هـ) .

ولما ولى قايتباى السلطنة ، عينه أتابكا للجيش ، وأرسله فى حملة إلى سوريا لتأديب ملك الفرس . ولكن هذه الحملة باءت بالفشل . ووقع جاني بك أسيراً . ثم أطلقه ملك الفرس ليكون واسطة بينه وبين سلطان مصر . وبعد عودته إلى القاهرة عينه قايتباى أمير سلاح ، وأكرمه . وفى سنة ٨٧٧ هـ أرسله قايتباى على رأس حملة تأديبية إلى حسن الطويل ملك ما بين النهرين (العراق) ، فأفلح هذه المرة ، وأخذ كثيراً من الغنائم . فخلع عليه السلطان ، وعينه أميراً للشام .

وقد ظل جاني بك فى إمارته هذه زمناً طويلاً ، أبرز خلاله ضروب الجدارة والكفاءة وحسن السياسة . وفى ربيع الاول سنة

٨٨١ هـ أرسل هدية إلى السلطان قايتباي مكونة من عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع شتى من المنسوجات الثمينة . وتوفي جاني بك في ذى الحجة عام ٨٨٣ هـ . فأسف السلطان كثيراً لوفاته وبكاه .

٨ — ازبك بن ططخ — وقد وردت ترجمته في مكان آخر من

هذا الكتاب ، لأنه كان مصلحاً منشئاً إلى جانب كونه من عظام القادة في هذا العصر . فإنه يعود الفضل في كثير من المنشآت والتعمير ، كما إنه يعتبر من الأبطال الذين نشروا لواء مصر في ربوع البلاد الأخرى . وقد خاض كثيراً من الحروب ، أشهرها حروبه ضد السلطان سليم العثماني ، واستطاع قهره أكثر من مرة . بل إنه الوحيد الذي استطاع أن يغلب العثمانيين ويردهم على أعقابهم أكثر من مرة (أنظر ترجمة السلطان قايتباي) .

٩ — قيت الرجبى — كان والياً على القاهرة في عهد السلطان

قايتباي (سنة ٨٩٧ هـ) . وفي سنة ٩٠٥ هـ عينه السلطان الظاهر قانصوه الغورى نائباً على طرابلس . وفي سنة ٩٠٨ هـ أسند إليه الغورى إمارة المحمل ، وأمره بالقضاء على فتنة أمير مكة ، فأبلى في ذلك بلاءً حسناً ، وقبض على أمير مكة ، وأحضره معه إلى القاهرة .

١٠ — قرقاس بن ولى الدين — كان أميراً ألف في عهد السلطان

الناصر محمد بن قايتباي ، ثم عينه السلطان الغورى أميراً على حلب ، ثم أمير سلاح ، ثم أتاكبا للجيش . وكان محباً للرعية ، ميالاً

للإصلاح ، لين الجانب جم التواضع كثير التثقل لتفقد شؤون الدولة نيابة عن السلطان . وقد توفي في ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ فرجت القاهرة لموته ، وكانت جنازته حافلة ، سار فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون والأعيان . وقبل السلطان نعشه وهو في المصلى وبكاه بكاء كثيراً ، وحمل بنفسه نعشه ومشى به خطوات تكريماً له ، ثم تلقفه منه الأمراء (١) .

١١ — سودون بن جاني بك — عينه السلطان الغوري اتابكا

في ٢٧ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ . وناب عن السلطان أكثر من مرة ، فأحسن إدارة البلاد وتصريف الأمور . وكان يسافر لتفقد أحوال البلاد ، مثل سفرته إلى الفيوم عام ٩٢٢ هـ ، وسفرته مع السلطان في السنة التالية لتفقد الأحوال في الأقطار الشامية .

ولما نشبت معركة مرج دابق مع العثمانيين ، كان سودون أول من هجم للقتال ، فاستطاع بشجاعته وحسن قيادته هزيمة الجنود العثمانيين في الجولة الأولى ، وأسر منهم عدداً كبيراً كما غنم غنائم لا تحصى . إلا أن الخيانة التي دبت في صفوف السلطان الغوري (كما تقدم في ترجمته) ، أدت إلى انهزام الشراكسة في الجولة الثانية ، وقتل أميرهم الشجاع سودون ، ثم السلطان الغوري نفسه .

(١) تاريخ ابن اياس ، وعصر سلاطين المماليك للاستاذ محمود رزق سليم .

وقد وصفه ابن إياس بأنه كان أميراً ديناً لين الجانب ، شجاعاً
بأسلاً ، مات في الدفاع عن مصر وعن حريتها . ولما بلغ خبره مصر
حزن عليه الناس كثيراً ، وترحموا عليه .

١٢ — سودون الشهابي — تميزاً له عن سودون بن جاني بك
السابق ترجمته . وقد عينه السلطان الأشرف طومان باي أتابكا بعد
مقتل سابقه ، واصطاحبه لقتال العثمانيين . فأصابه جرح بليغ في
خذه في معركة الريدانية ، فسقط من شدة الإعياء إلى أن قبض عليه
بعض العربان وسلبوه للسلطان سليم العثماني . ورغم حالته ، أمر
به سليم ، فأركبوه حملاً طافوا به الأسواق ، ومات وهو على هذا
الحال ، في أول المحرم سنة ٩٢٣ هـ . فيكون بذلك آخر أتابكة
هذا العهد .

المالية :

- كانت مالية الدولة تجبي من الضرائب ، ومن أهمها :
- (١) ضريبة الأرض ، وتدفع عيناً من المحصول .
 - (٢) ضريبة السفن ، وتدفع نقداً .
 - (٣) الزكاة ، ويدفعها أصحاب الأموال والتجار .
 - (٤) المكوس ، وكانت تؤخذ عن البضائع الواردة إلى الموالي .
 - (٥) أسلاب الحرب والغنائم .
- وكان للضرائب جباة ، أكثرهم من الأقباط . ويشرف على

مالية الدولة رئيس ديوان الحسابات ، أو أمير الخزينة .

أهم مناصب الدولة :

(١) نيابة السلطنة ، ويدعى شاغلها « نائب السلطان » . ويعينه السلطان الفعلى عندما يكون غائبا عن القاهرة ، أو قاصرا لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهى السن القانونية المحددة لتولى مقاليد الحكم .

(٢) أمير المجلس ، ويوكل اليه أمر الأطباء ومن اليهم .
(٣) أمير السلاح ، واليه يوكل حمل سلاح السلطان فى الاحتفالات الرسمية ، وفيما عدا ذلك يكون مسؤولا عن أسلحة الجيش .
(٤) الاستادار ، ويشرف على قصر السلطان وخدمه ، ومطبخه ، ويدبر للسلطان شؤونه المالية .

(٥) الدوادار ، وهو الذى يقوم بتبليغ الرسائل للسلطان ، ويتلقى منه الأوامر ليبلغها إلى أصحاب الشأن .

(٦) أمير جاندار — وهو كبير الأمناء . ويقوم بتنظيم المواكب السلطانية .

(٧) نقيب الجيش ، وهو المسؤول عن الاستعراضات العسكرية ، وملابس الجيش .

(٨) المحتسب ، وهو حاكم مدينة القاهرة .

(٩) ناظر ديوان الإنشاء — وهو المسؤول عن مباني السلطان

وعماثره . ويشرف على تنفيذ المنشآت والمباني التي يأمر السلطان بتشبيدها .

(١٠) والى الشرطة ، وهو المسؤول عن قوات « البوليس » والأمن الداخلى .

(١١) ولاية الاقاليم والامراء . وكانت أهم الولايات الخارجية : ولاية حلب ، ولاية طرابلس ، ولاية حماة ، ولاية صفد ، ولاية غزة ، ولاية القدس ، ولاية الكرك ، ولاية الشام . ومن الولاة من شغل منصب أكثر من ولاية . أشهر رجال الإدارة :

برز خلال هذا العصر — خلاف من ذكرنا من القادة العسكريين — رجال إدارة مخنكون ، وماليون حازمون . وفيما يلي تراجم لأهم هؤلاء نوردتها باختصار :

١ — إزبك اليوسفى : وقد تولى منصب الخازندارية الكبرى فى عهد قايتباى ، فأحكم إدارة الشؤون المالية ، وتولى بعد ذلك كثيراً من الوظائف العالية ، أثبت خلالها جدارته وعلو همته .

٢ — خاير بك الخازندار : وكان أحد الامراء المقدمين ، وصهر السلطان قانصوه الغورى . وقد شغل منصب الخازندارية الكبرى ، ثم عينه السلطان أميناً على خزائن الاموال ، وأصبح ذا أثر كبير فى تدبير شؤون المملكة . ومات وعمره ثمانون عاماً .

٣ — قانى باى قرا : وكان كبير أمراء الياخور السلطاني ، جليلا ، ذكيا ، أسمر اللون ، طويل القامة ، محبا للخير والاصلاح . فأنشأ جامعاً تجاه سوق الخيل ، وجامعاً آخر قرب البركة الناصرية ، وعدداً من المنشآت الأخرى . وقد اشتهر في عصره بالفروسية ، وألعاب الخيل ، وزوجته بنت الامير يشبك المار ذكره .

٤ — جان بردى الغزالي : (١) كان كاشفاً للشرقية في عصر الأشرف قايتباى . وعند اعتلاء الغورى العرش ، عينه في الحسبة . وكان من الأمراء الكبار الذين أثروا بسياساتهم وأعمالهم في سير الحوادث بمصر . وقد اشترك في قتال العثمانيين مع الغورى ، ولما اعتلى طومان باى العرش عينه والياً على الشام ، وأطلق عليه لقب « ملك الأمراء » . ولكن جان اتفق سرّاً مع العثمانيين ، وخان سلطانه ، وانسحب بجيشه من القتال ، فعينه السلطان سليم نائباً عنه على الشام . وحاول بعد ذلك الزحف على مصر واحتلالها ، واستقل بإدارة سوريا عن العثمانيين ، وصك النقود باسمه ، وخطبوا له في الجوامع ، فلما علم السلطان سليمان العثماني بذلك جرد عليه جيشاً لإخضاعه ، فهزم جان وأسره العثمانيون ، وأخذوه إلى استانبول حيث قتل (عام ٩٢٧ هـ) .

(١) نسبة الى ضيعة منية الغزال وهى ضيعة الاستادار تغرى بردى .

٥ — الأمير يشبك الجمالى : كان محتسباً (أى حاكماً)
لمدينة القاهرة فى عهد السلطان الغورى (عام ٩١٤ هـ) ثم عينه
السلطان وزيراً ، فظل فى هذا المنصب طويلاً ، وأداره بهمة ونشاط
وكفاءة وحسن استعداد .

ومن أعماله أنه أمر النساء بعدم لبس الأكام التى تظهر منها
أصابع اليد ، وأمرهن كذلك بعدم لبس العصاة القصيرة ، وهدد
المخالقات منهن بالعقاب الشديد . كما وطد دعائم الأمن وقبض على
اللصوص ، فنشطت التجارة والرحلات .

وعندما اعتلى طومان باى العرش ، عينه وكيلاً لبیت المال ،
وناظراً للذخيرة .

وعندما احتل السلطان سليم مصر ، قبض عليه وأرسله منفياً
إلى استانبول . إلا أن سفن الفرنجة اعترضت أسطول العثمانيين فى
عرض البحر ، وقامت بين الطرفين معركة أصيبت خلالها السفينة
المقلة للجمالى ، فغرقت بمن فيها . وهكذا انتهت حياته عام ٩٢٥ هـ .

٦ — محمد بن رجب : كان وزيراً للسلطان برقوق ، محمود
السيرة ، فباشر الوزارة بمهابة ، ودبر المملكة بحكمة ودراية . وتوفى
عام ٧٩٧ هـ . وكانت جنازته حافلة (١)

(١) عصر سلاطين المماليك ص ٣٢٢ — للأستاذ محمود رزق سليم .

٧ — قائصوه اليجياوى : تولى عدة وظائف عالية منها : نيابة الإسكندرية ، و نيابة طرابلس ، و نيابة حلب ، و نيابة صفد ، و نيابة الشام ، و نيابة القدس . وكان من أجل الأمراء ، وأعظمهم قدراً ، وأكثرهم دراية فى شؤون الإدارة و تعاطى الأحكام .

٨ — الأمير طراباى : من رجال الملك الأشرف قايتباى ، وكانت له كلمة نافذة وسطوة زائدة ، ونسب إليه أنه كان يصادر الأرزاق ، فلما توفى أمر السلطان الغورى بمصادرة أملاكه ، ورد ثمنها إلى صندوق الدولة .

٩ — كرت باى الأحمر : من رجال الأشراف قايتباى أيضاً . اتصف بالعدل ، وبعد تعيينه فى منصب الوزارة (سنة ٩٠١ هـ) أجرى كثيراً من الإصلاحات : فأبطل نظارة الأوقاف لأنها كانت مصدر ظلم وشكاوى كثيرة ، وخفف الضرائب وألغى بعضها ، وحدد رواتب القضاة ، وألزمهم بأن لا يأخذوا من المتخاصمين أكثر من نصف فضة . وتوفى سنة ٩٠٤ هـ .

١٠ — الامير جام : وهو زوج أخت زوجة السلطان قايتباى ، وكان زفافه من أروع الحفلات التى شهدتها القاهرة ، فزينت الشوارع ومشى فى ركابه الأمراء ، وأمسك الأمير يشبك الدوادار والامير ازدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه على عظم مركبيهما . وقد تولى جام رتبة الوزارة وهو دون العشرين من عمره . وكان

على صغر سنه وافر العقل جليل القدر محبباً من الناس . فلما مات عام ٨٨٤ هـ (ولما يمض على زواجه أكثر من شهر) حزن عليه السلطان والناس حزناً شديداً ، وأقاموا له مأتماً ثلاثة أيام بالقلعة .

١١ — جاني بك الدوادار — ولده السلطان جقمق نظر

الكنائس ، ثم ولاية جدة ، عام ٨٤٩ هـ ، فأظهر بما وكل إليه كفاءة محمودة . فرقاه جقمق « إستانداراً » ، فعظم مركزه ، وكتبه الملوك ، ولما تولى ينال العرش عينه « دواداراً » ، فتولى إدارة شؤون الدولة بحزم وكياسة .

ومن محاسنه : أنه ابنتى مدرسة وداراً للأيتام ، وحوضاً عظيماً وبركة عامة . فأحبه الناس وأكرموه ، كما أكرمه الملوك والزعما من قبل .

الحياة الاجتماعية والثقافية

شاع في عصر دولة الشراكسة لبس الطواق أو « القلابق » ، بغير عمامة ، بعد أن كان نزع العمامة يعد في العصر السابق عاراً وعبثاً . وقد بلغ ارتفاع بعض هذه القلابق نحو ٤ سنتيمتراً ، وكان بعضها على ألوان .

وقد أدخل الشراكسة على مصر زيهم القومى ، فاعتنوا بلبسه ، « وكان لسلطينهم مختصون باختيار الملابس ، ويسمى الواحد جمداراً » .

وفي عصر السلطان برقوق ، شاع لبس الفراء ، كما أمر النساء بلبس الملابس الواسعة الفضفاضة . وفي عهد السلطان قايتباي ، أمر يشبك الجمالى محتسب القاهرة بأن لا تلبس النساء العصاة القصيرة ، وأن لا يقل طولها عن ثلث ذراع ، وأن تكون محتومة من الجانبين بختم السلطان .

* * *

ولم يتدخل الشراكسة في حرية العقائد ، فتركوا لكل ملة حرية العبادة التامة ، ولم يتعرضوا لآرائها الدينية . بل إنهم أحسنوا معاملة الأقباط ، وأكثروا من استخدامهم ، ولم يحدث أن اضطهد في عهدهم أهل الذمة ، كما حدث في بعض العهود السابقة .

* * *

وكان الشراكسة محافظين على استقلالهم الإجتماعي ، وطابعهم القومي . فلم يكثروا من الإختلاط بأهل البلاد . إلا أن ملوكهم كانوا مع ذلك دائبي الحذب على الرعية ، وتفقد شؤونها بأنفسهم ، فكانوا يطوفون بالبلاد ، ويسألون عن مظالم أهلها ، وحافظوا على الآداب العامة ، وصانوا الفضيلة ، كما نشروا لواء العلم والحضارة ، بكثرة ما استحدثوه من المنشآت ، والمدارس ، والجوامع ، والأبنية العامة ، وما غرسوه في البلاد من بذور نافعة ، ليس أقلها أهمية حب النظام ، وواجب الطاعة ، والفناء في سبيل الوطن .

وقد ظهر من بين الشرا كسة علماء ومؤرخون وأدباء ، نذكر
• منهم الأمير بيبرس الدوادر ، وقد ألف كتابا في أحد عشر مجلداً
سماه « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » ، تنكلم في بعض أجزائه على
ملوك مصر . وتوجد منه أجزاء مخطوطة بمكتبة جامعة فؤاد الأول
بالقاهرة .

ومنها أبو حامد بن خليل بن يوسف المقدسى ، (٨١٩ - ٨٨٨ هـ)
وقد ألف كتابا في تراجم ملوك الشرا كسة وقدمه إلى الأمير يشبك
كبير حكومة الملك الأشرف قايتباى . ولهذا المؤلف كتب أخرى
منها « المختصر في تاريخ ملوك مصر » ، و « رحلة الأمير يشبك إلى بلاد
الشرا كسة بالقوقاز » سنة ٨٧٥ هـ .

ومن مؤرخيهم كذلك العالم الأديب محمد بن إياس (من الإبازة)
وقد توفى سنة ٩٠٨ هـ عن ٨٤ عاما . ومن أهم مؤلفاته « بدائع الزهور
في وقائع العصور » وما زال هذا الكتاب من أهم المراجع في تاريخ
الشرا كسة وعصورهم .

وكان الملك قانصوه الغورى شاعراً عالماً أديباً ، وله ديوان شعر .
وكذلك الملك العادل جان بلاط ، وقد ألف كتابا في فن الحرب
والقروسية .

ومن العلماء : صارم الدين قابماز بن ابراهيم بلباى الشركسى .
وقد كان من علماء الحديث والفقه .

ومنهم ابراهيم بن لاشين الشركى ، وكان عالماً بالنحو والتفسير
والفقه والطب . وتوفى عام ٧٤٩ هـ .

ومنهم سيف الدين بلبان البيسرى ، وكان فقيهاً متصوفاً ، وتوفى
عام ٧٥٦ هـ .

ومنهم الأمير آق بردى ، وكان عالماً ، وتولى الوزارة لابن عمه
الملك الأشرف قايتباى . وكان معروفاً باطلاعه الواسع ، وتخصص
فى الطب والكيمياء .

ومن الفقهاء الصوفيين : شاهين بن عبد الله الشركى ، ظهر فى
عصر الملك قايتباى ، وساح بلاد العجم والشام وغيرها . وقد بنى
زاوية بالمقطم وكان لا ينزل مصر إلا لضرورة شديدة . ثم انقطع
عن النزول من الجبل مدة ٤٧ عاماً . واشتهر بالصلاح والتقوى إلى
جانب علمه الغزير واطلاعه الواسع . فكان أمراء مصر وقضاة
وأكابرها يزورونه ويتبركون به . وتوفى فى شوال سنة ٨٥٧ هـ وبني
السلطان عليه قبة ووقف على مكانه أوقافاً (١) .

ومنهم جمال الدين يوسف بن يحيى الشركى الحنفى بن الأمير محى
الدين بن الأمير إزبك . قرأ شرح الأجرومية على الشيخ خالد
والقواعد على ابن طولون ، ثم أخذ فى حل الألفية عليه ، وحل

الكنز على القطب بن سلطان . ثم جاء مصر لاستحقاقه في وقف
جده (الأمير إزبك منشىء حديقة الأزبكية) ، فتوفي بها غريقاً
ودفن بقرية جده . (١)

وفي كتاب « تاريخ الحركة القومية » — الجزء الاول ، يعترف
سعادة المؤرخ الفاضل عبد الرحمن الرافعي بك بفضل سلاطين الدولتين
التركية والشركية في إنقاذ آداب اللغة العربية وحفظها إلى هذا اليوم
إذ يقول : « فقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية
والبرجية (الشراكسة) حافظة مكانتها التي كانت لها من قبل . واليه
يرجع الفضل في إنقاذ اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت
تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق ، فكانت مصر ملجأ
للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا
وخراسان وبقيت لغة حكومتها عربية في عهد تينك الدولتين ،
واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين في مصر ، ونبغ
فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصيري صاحب
البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب
صبح الأعشى ، والابشيهي صاحب المستظرف ، وابن منظور
صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوي العظيم الذي يقال فيه
انه أتحمى من سيديوه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجي صاحب حلبة

الكيميت، والقسطلاني المحدث المشهور، وشمس الدين السخاوي صاحب
الضوء اللامع، وابن خلسكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان،
والصفدي صاحب الوافي، وابن حجر المؤرخ إمام الحفاظ والمحدثين
في زمانه، والعيني المؤرخ والمحدث، وابن وصيف شاه، وابن
دقاق، والمقريني صاحب الخطط، والمكيين بن العميد، وأبو القداء
المؤرخ الجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان، والذهبي،
والنويري صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب، وابن فضل الله
العمرى صاحب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وابن عقيل،
وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة، وجلال الدين السيوطي
صاحب التأليف الشهيرة في التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ
والأدب واللغة، والدميري صاحب حياة الحيوان، وابن اياس
لمؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني.

« وقد استضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة
في الشرق كالإمام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وفيلسوف المؤرخين
ابن خلدون » ١٠هـ.

ويؤكد الأستاذ الرافعي في صفحة ٣٥ من كتابه المذكور أن
عهد الدولتين البحرية (التركية) والبرجية (الشركسية) كان عهد
حضارة وعمران. وذكر في صفحة ٣٣ أن اللغة العربية كانت لسان
الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية. ويشير في هذه الصفحة
أيضاً إلى المدارس التي « ازدهرت في عهد دولة الشراكسة والدول
السابقة ».

وأقول أنا : إذا لم يكن لدولتي الترك والشراسة غير هذا الفضل ، فضل حماية اللغة العربية وآدابها ، وتغذيتها ، فكفاهما ذلك فضلاً ، خليف بأن يسمح عنهما جميع مساوىء العصرين وعبوبهما ، ويرد عنهما هجوم الكتاب وتحاملهم .

الآداب العامة :

وجه سلاطين هذه الدولة انتباههم نحو حماية الآداب العامة ، فسنوا كثيراً من القوانين ، وأصدروا كثيراً من الأوامر ، لتنفيذ هذا الغرض . ومن ذلك أنه لما انعكف الناس عن اللعب في القاهرة ، وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخالجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه ، بعد ما كانت أسواق القاهرة تعطل في يوم النيروز عن البيع والشراء ، ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة ، إلى الغاية من الفجور ، فما انقضى يوم نيروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر^(١) ، إزاء كل ذلك ، أمر برقو بإلغاء الاحتفال بهذا العيد ، وهدد من أحياء بالعقوبات الصارمة .

وقد سار السلطان الأشرف برسباى على هذه السياسة الحميدة ، فقد « أبطل سائر الخنارات من السواحل وغيرها في بلاد الشام ، وكبست أماكن الريب بالقاهرة ومصر ، وأريققت الخمر ، وتتبع أماكن الفساد وبالغ في إزالته ، ولم يراع في ذلك أحد من الكتاب ولا من الأمراء ، نخف المنسكر وخفي الفساد » .^(٢)

(١) خطط المقرئى جزء ٢

(٢) نفس المصدر السابق .

حركة الانشاء والتعمير

من أشهر رجال هذا العصر الذين هم من أصل شركسى ، إزبك بن ططخ . وكان من القسادة المشهود لهم ، قاتل العثمانيين و انتصر عليهم مرتين . وكان نائباً على الشام ، ثم عين أتابكاً للجيش بالقاهرة . وقد قام إزبك فوق قيادته للجيش ، بالإشراف على حركة العمران في عصر قايتباى . فكان يباشر بنفسه إقامة المباني والمنشآت العامة . وفي سنة ٨٨٠ هـ بدأ بإنشاء حديقة « الأزبكية » المعروفة في وسط القاهرة . وكانت إلى ذلك الحين أرضاً خربة ممتلئة بمكتب من الرماد . فأجرى إليها الماء من النيل ، وأنشأ بها البساتين والمباني والحمامات .

ثم حفر بركة وجمل شواطئها ، ونشر حولها المقاعد ، كما أقام بها مسجداً كبيراً ، زوده بمكتبة كبيرة .

وقد أنفق إزبك في إنشاء تلك الحديقة التي جعلها أحد منتزهات القاهرة ، نحواً من مائتى ألف دينار .

ومن منشآته كذلك ، قناطر الجيزة ، وقد أتم بناءها في شعبان عام ٨٨٥ هـ ، فتمنحه السلطان هدايا قيمة . وفي عام ٨٨٩ هـ جدد عمارة المدرسة المنصورية ، وضرب على الفسقية التي بها قبة ومنبراً ، وكان ينفق على هذه المنشآت من ماله الخاص .

وقد حاول بعض الأمراء مبايعته بالسلطنة ، فأقسم ألا يكون سلطاناً ، وأبى ذلك إباء شديداً .

وقد توفاه الله يوم الاربعاء ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ وبذلك انتهت حياة أحد أفذاذ هذا العصر وأبطاله العظام .

وفي عصر سلاطين الشراكسة ، كانت القاهرة مدينة رائعة الجمال نفحة البناء جميلة العمارة متجانسة في كل شيء . وكانت قصورهم التي لاتزال آثار بعضها لليوم ، كبقايا قصر بشتاك وبوابة دار إيزبك الفتانة الملاصقة لجامع السلطان حسن ، وبعض عتبات قايتباي ، وقصر الأمير ماماي الذي بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التي نعرفها اليوم ببنت القاضي (١) . كل هذه المنشآت كانت في كامل مجدها حينذاك ، وآثارها الباقية لهذا اليوم تعبر أصدق تعبير عن الحركة الإنشائية والعمرانية التي رعاها وأنفق عليها ملوك الشراكسة وأمرأؤهم . وقد وصف المقرئ في كتابه الخطط ، كثيراً من هذه المنشآت والدور الخاصة ، وكان وصفه لها فيما لا يقل عن أربعين صفحة .

وقد تبارى السلاطين والأمراء كذلك في إقامة الميادين الفسيحة والحمات الشعبية ، والقناطر والجسور ، والبرك الشعبية ، وهكذا تمتعت القاهرة وابتهجت تحت حكم سلاطين البحرية والشراكسة كما بهرت العالم بمدنيتهما وثقافتها (٢)

(١) المذكورون كلهم من الشراكسة والكلام المنشور أعلاه بين قوسين منقول عن كتاب القاهرة للبكباشي عبد الرحمن زكي ص ١٠٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢٠

وقد عنى سلاطين الشراكسة وأمرؤهم بغرس الأشجار المثمرة ، وإنشاء البساتين ، فاستحضروا لهذا الغرض شتل الثمار من بلاد اليونان وسوريا وآسيا الصغرى . كما استجلبوا أشجار الزينة والظلال وزينوا بها الميادين والشوارع . وقد كان أشد سلاطينهم عناية بالزراعة السلطان قايتباى والسلطان الغورى ، والآخر هو الذى أنشأ ميدان القلعة وأجرى إليه المياه وغرسه بالأشجار كما تقدم .

كلمة مؤ

وقد عاب بعض الكتاب على هذا العصر كثرة ما تخلله من الاضطراب والدماسيس ، مما جعل الحياة الاجتماعية غير مستقرة ، كما عابوا على الشراكسة بطشهم وجبروتهم . ولكننا لو نظرنا بعين النزاهة إلى تاريخ هذا العصر ، لما وجدنا هذه الفترة القلقة تتعدى جزءاً صغيراً من مجموع السنوات التى حكم خلالها ملوك عظام مثل برسباى وبرقوق وقايتباى وغيرهم . ومثل هذه الفترات القلقة تحدث فى تاريخ أى عصر ، وأية أمة . فلماذا نلطمخ تاريخ قرن ونصف ، مليء بجلال الأعمال ، من أجل فترات متقطعة من الفوضى ، لم يكن للشراكسة أحياناً يد فى إحداثها ، مثل تلك الفترة القلقة التى خلقها طمع الخليفة العباسى ، وخوش قدم اليونانى ، بالعرش ؟

لقد أجمع المؤرخون الذين يعتد برأيهم على أن حكم بعض ملوك الشراكسة كان مثلاً يحتذى فى النزاهة ، والسهر على راحة الرعية ، واستتباب الأمن ، ونشر العلوم والمعارف ، حتى كان الناس

يكونهم لفجيعتهم في وفاتهم. ومن هؤلاء الملوك العظام — كما قدمنا — برقوق ، والأشرف برسباي ، والظاهر جقمق ، والأشرف قايتباي ، وقانصوه الغوري ، والأشرف طومان باي . فلو أنك جمعت عدد السنين التي حكم فيها أولئك الملوك ، لوجدتها تربو على المائة عام من مجموع السنوات التي حكم خلالها ملوك الشراكسة وهو ١٣٥ عاما . فأين هي الفوضى إذن في هذا العصر ، وما نسبة سنيها إلى عدد السنين كلها ؟ هل يصح اتهام عصر بأكمله بالظلمة والفساد من أجل حوادث معدودة ، أسف لها أمراء الشراكسة وسلاطينهم قبل أن يأسف لها أحد آخر ؟

وإن الظلمة والتأخر والفساد ، مما أجملناه في الفصل السابق ، من أعمال سلاطين الشراكسة ، ومنشأتهم ، وحمايتهم ، للبلاد ، مستشهدين بأقوال المؤرخين المعروفين ، والكتاب من الأجانب والمصريين ؟ ويعزى إلى الشراكسة كونهم اشتطوا بجمع الضرائب ، حتى كانوا يحبونها أحيانا بالسياط . إلا أن هذه الأموال التي كان يجمعها ملوك الشراكسة ، كانت تقتضيها حالة العصر وكثرة الحروب التي تستنزف الأموال والأرواح ، (وكانت أكثر الحروب التي خاضها الشراكسة حروبا دفاعية لصد غزو خارجي) ، كما كانوا ينفقونها على عمران البلد ، وإقامة المباني ، والميادين ، والقلاع ، ولم ينفقها ملوكهم على شهواتهم ، أو مطالبهم الخاصة . وقد ذكر الدكتور علي إبراهيم حسن في كتابه « مصر في العصور الوسطى » أن التجار كانوا يخفون

أموالهم وبضائعهم تهريباً من دفع الضريبة. فإذا كان ضرب الشرا كسة
لمثل هؤلاء بالسياط كي يدفعوا الضرائب المقررة يعد قسوة ووحشية،
فماذا نسمى اليوم عقوبة الإعدام التي قررتها بعض الدول الأوروبية
على التجار الجشعين والمتلاعبين في أرزاق الشعب؟! ولندكر دائماً
أن مصر كانت في حالة حرب شبه مستمرة، وكان يهددها دائماً غزو
من الخارج، فكان الجيش يكلف خزينة الدولة أموالاً طائلة. فأما
الأموال فكان يقدمها الأهلئ والتجار، وأما الشرا كسة، فكانوا
يقدمون أرواحهم، ويبذلون دمهم، للوطن فداء...



ولعلنا لا نجد كلمة نختم بها هذا الفصل أفضل مما قاله السيد وايم
موير في كتابه « تاريخ المالئك » صفحات ٢١٨ و٢٢٠، قال:
« لقد تربوا في كلا مدارس الحرب والسياسة، وكانوا حتى وهم
صغاراً، متضلعين بالعلوم، والفلسفة والدين، فضلاً عن الفروسية
واستعمال السلاح. وبذلك كانوا حائزين لجميع الصفات التي تؤهلهم
لمراكز القيادة والحكم. لقد ابتنوا المستشفيات، والمساجد،
والمدارس، والملاجئ، ومؤسسات البر والإحسان، وكثيراً
من المنشآت العامة، خلفوا وراءهم آثاراً من عصرهم ما زالت
قائمة الى يومنا هذا تزين العاصمة، رغم ما ناله من تخريب وتشويه.

القسم الثالث

مِنْ الْفَتْحِ الْعُثْمَانِي إِلَى يَوْمِنَا هَذَا

مكتبة

الشيخ محمد باقر

الفصل الاول

مصر تحت الاحتلال العثماني

تمهيد :

لما فتح العثمانيون مصر ، رأى السلطان سليم أن انتصاره لا يتم إلا إذا جمع بيديه السلطة الدينية إلى جانب السلطة الزمنية . فقاد الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله الثالث إلى الآستانة ، وانزع منه الخلافة ، فأصبح السلطان العثماني يلقب منذ ذلك التاريخ بخليفة المسلمين ، وانهى إلى الأبد عهد الخلافة العباسية .

وكما أخذ معه الخليفة ، أخذ كذلك رؤساء الصناعات المتخصصة في الفن والصناعة معه إلى الآستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، ومع هؤلاء وأولئك ألف جمل محملة بالذهب والفضة ، فضلا عن التحف والسلاح وأعمدة الرخام والصيني والنحاس . فأخذ من مصر من كل شيء أحسنه ، وكذلك جنوده ، فانهم غنموا من النهب مالا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة (١) .

نظام الحكم الجديد :

وقبل عودته إلى مقر ملكه ، عين السلطان سليم المدعو خاير بك ،

(١) تاريخ ابن اياس — الجزء الثالث .

وهو من الشراكسة الذين انحازوا اليه في معركة مرج دابق ، وكان قبل ذلك من كبار رجال السلطان الغورى ، والياً على مصر ، ولقبه بالباشا . كما ترك قوة من الجند الترك تحت قيادة خير الدين أحد قواد العثمانيين ، عددها ١٥,٠٠٠ مقاتل .

وقد قسم السلطان سليم مصر إلى ٢٤ ولاية أو « سنجقاً » (١) على رأس كل منها « بيكا » تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد ، وهؤلاء من الشراكسة .

وأنشأ غير ذلك الوظائف الكبرى التالية :

الكخيا — أى نائب الوالى .

الدفتدار — للشؤون المالية .

الروزنامجى — لإدارة الخراج وضرائب الأتليان .

أمير الحج — لمراقبة شؤون الحج ومرافقة الحجاج إلى الحجاز وتوزيع الهبات على فقراء المدن المقدسة .

الخازندار — لحمل الخراج سنوياً إلى الآستانة .

القبودانات — وعددهم ثلاثة ، لحكم ثغور الاسكندرية ودمياط والسويس .

وكان تعيين الكتبخدا وقباطين الثغور يصدر به رأساً مرسوم من السلطان ، أما باقى البكوات والموظفين فيعينهم الباشا .

(١) يقول الجبرقى إن السناجق صاروا ٢٤ سنجقاً سنة ١٧٢٣ م وكانوا قبل ذلك ٢٢

الباشا :

كان مقره القلعة ، ويعين بمرسوم من السلطان العثماني لمدة لا تزيد عن السنة ، وذلك حتى لا يطمح أحد الباشوات إلى الاستقلال بالحكم ، بتوطيد نفوذه الشخصي في مصر . إلا أنه كان يجوز تجديد هذه المدة ، فيصدر بذلك فرمان سلطاني جديد .

وعندما يصل الباشا الجديد إلى القاهرة ، يبلغ الديوان نبأ وصوله ، فيرسل شيخ البلد وفداً من البكوات لاستقباله والحفاوة به . وفي خلال ذلك يستطلعون نياته وأسراره عما يتسقطونه من أقواله وأحاديثه ، فاذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أنبأوا شيخ البلد وهذا يعمل في الغالب على خلعه قبل استلامه مقاليد السلطة . وإذا وجدوه مسالماً ، أركبه الوفد سفينة نفخة ، ومعهم الطبول والزمر إلى أن يصلوا بولاق . وهناك ترسو المراكب ، ويكون شيخ البلد ، في استقبال الباشا الجديد ، ويقدم له أغا الانكشارية مفاتيح القلعة .

وكان على الباشا أن يبلغ أوامره إلى شيخ البلد ويراقب تنفيذها . إلا أن سلطته كانت محدودة ، إذ كان يشاركه الحكم في الواقع رؤساء الجند ، وهم قواد الفرق العثمانية ، أو الوجاقات ، وعددها خمس كالاتي .

١ - وجاق المتفرقة ، وعدده من ألف إلى ألني فارس ، وهو

مؤلف من حرس الباشا وبعض البكوات .

٢ — وجاق العزب، وهو من المشاة، وعددهم يتراوح بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف مقاتل.

٣ — وجاق الإسباهية، وهم من الفرسان، وعددهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

٤ — وجاق الشاويشية، وهم من المشاة، وعددهم لا يتجاوز الألف.

٥ — وجاق الانكشارية، ولهم معسكر مستقل بالقلعة، كما أن قائدهم مستقل عن السلطان، وله نفوذ كبير.

وعندما اعتلى السلطان سليمان القانوني عرش تركيا، أنشأ فرقة جديدة من الشراكسة في مصر سماها « وجاق الشراكسة » فأصبح بذلك عدد الوجاقات ستة.

ومن رؤساء هذه الوجاقات كان يتألف « الديوان » أو مجلس الشورى، الذى لم يكن للبasha أن يقضى بأمر دون استشارته وموافقته. وكان ينعقد هذا الديوان مرتين كل أسبوع (الأحد والثلاثاء) للنظر فى الشكاوى وأمور الدولة العادية.

وقد توالى عدد من هؤلاء الباشوات على مصر. فكان منهم الصالح والطالح. وكان من بينهم عدد من الشراكسة مثل سنان باشا (٩٧٦هـ)، واسكندر باشا الشركسى (٩٧٨هـ)، والاول افتح الين، والثانى كان حكيما محبا للرعية، فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الأعظم من طلبية العلم لأنه كان شديد التعلق بالعلم وذويه.

واهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد ، وأعاد حفر ترعة الإسكندرية ورمم فيها جامعاً وبنى مدرسة وافتتح شارعاً وعدة حمامات . وبنى في بولاق بمصر شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال يعرف باسمه (جامع جركس ويعرف الشارع باسمه أيضاً) . ومازال على مصر إلى ذى الحجة سنة ٩٨٠ هـ .

استئثار البكوات بالسلطة :

إلا أن هذا النظام الذى أنشأه السلطان سليم لم يدم طويلاً ، إذ كثر تدخل الجند ورؤسائهم فى أمور الدولة . فاغتنم البكوات الشراكية فرصة التنازع هذه وأخذوا يعملون على الانفراد بالسلطة . وانتهى الأمر بأن استقر الحكم لأولئك البكوات ، وجعلوا توقعات الباشا وأوامره جبراً على ورق .

ومنذ ذلك التاريخ (منتصف القرن السابع عشر) أصبح « شيخ البلد » — وكان ينتخبه بكوات الشراكية — صاحب النفوذ المطلق والسلطان الفعلى فى مصر . وكان شيخ البلد إذا أراد عزل الباشا ، أمكنه ذلك بتمتئى السهولة . ويصف المرحوم جورجى زيدان طريقة العزل بقوله : « وكيفية ذلك أن شيخ البلد ورجله إذا رأوا فى تصرف الباشا ما يوجب الشك ، يجتمعون اجتماعاً عمومياً فى الديوان ويقررون عزله ، ويكتبون بذلك أمراً عالياً يسلمونه إلى الأوطه باشي ليوصله إلى الباشا ، فيحمله ويسير منفرداً على حمار (لأن

القانون لا يسمح له بركوب الخيل أو البغال)، وبين يديه فرمان العزل. فإذا مر في الأسواق على هذه الصورة علم الناس انه ساع إلى أمر مهم فيه عزل، فيهرولون وراءه. ولا يزال سائراً في عرض الطريق قائداً لتلك المواكب نحو القلعة. وعندما يصل إلى القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو أمامه بكل وقار ولكنه عندما ينهض يطوى السجادة التي كان جاثياً عليها وينادى بأعلى صوته: «إنزل يا باشا». وعندما تسقط حقوق ذلك الباشا، ولا يسعه إلا الإذعان^(١).

وكان على الباشا المعزول أن يغادر القلعة خلال ٢٤ ساعة ويتوجه إلى بولاق، في انتظار الأوامر من استانبول.

وكان السلطان العثماني يوافق دائماً على قرار العزل الذي يصدره البكوات، ويحسب لقوتهم ألف حساب. وبعد أن يعزل الباشا يعين «الديوان» قائماً بما يتولى هذا المنصب إلى أن يصل الباشا الجديد...

سلطة البكوات:

كانت وظيفة البكوات حفظ الأمن، وحسم المنازعات، وتحصيل الضرائب وكان لكل بك عدة «كشاف» أو وكلاء، ينوبون عنهم أثناء تغيبهم في القاهرة، ويرسلونهم مع الجند لتحصيل الضرائب، وضبط الأمن. وكانت الضرائب على ثلاثة أنواع:

الأولى — ضريبة الخراج، أو الميرى، وهي من حق السلطان

(١) تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ١٣٥

العثماني ، وترسل له بواسطة الروزنامجي ، يساعده عدد من الكتبة
يسمون « الأفندية » .

الثانية - الإلتزام أو الكشوفية ، وهي من حق البك ،
ويصرف منها على إدارة المقاطعة ودفع رواتب الجند وحفظ الأمن .

الثالثة - ضريبة الموائء - أو المكوس - وهذه من حق الباشا .
فيُدفع منها رواتب الجند وسائر مصروفات الدولة .

وكانت الدولة تصادر أموال المتوفى إذ لم يظهر له وريث ،
أو تضمها إلى خزينة الدولة .

وقد نسب إلى البكوات تعسفهم في جباية الضرائب . إلا أن
المسئول عن ذلك كان في الواقع النظام الذي أوجده السلطان سليم
في مصر ، وهو المعروف بنظام الإلتزام ، إذ جعل هذا السلطان جميع
أراضي مصر من حقه ، وبهذه النظرية كان صاحب الأرض لا يملك
رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة .
غير أن لورثة حق استرجاعها لقاء مبلغ يعينه الوالي .

ويتلخص نظام الإلتزام بأنه تضمنين الضرائب لأشخاص يتولون
جمعها عن الحكومة ويشاركونها فيها . وكانت الحكومة تعرض جباية
الخراج بالمزايدة ، فمن يقع عليه المزاed سمي « الملتزم » . ويدفع للحكومة
سلفاً مال سنة . ويكون للملتزم الحق بعد ذلك بأن يحصل من أصحاب
الأرض ما شاء من الضرائب ، فكانت له بذلك ساطة تامة على الفلاحين

وأعجاب الأتليان . فحصلت حوادث كثيرة مؤسفة ، وذاق الفلاحون على أيدي بعض هؤلاء الملتزمين مرارة الذل والبؤس .

وهذا النظام - نظام الالتزام - كان متبعاً أيضاً في جميع البلاد الخاضعة للحكم العثماني . ولم يكن الحال هناك أحسن منه في مصر . ولعله يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن كثيراً من أولئك الملتزمين - بل أكثرهم - كانوا من أهل البلاد . وليس للبكوات الشراكسة أي ذنب في هذا الوضع - إذ أن هذا النظام كما ذكرنا آنفاً - من اختراع السلطان سليم العثماني وخلفائه . فلا معنى إذن لتحميلهم مسؤولية الظلم الذي أصاب الفلاحين والملاك من جرأته .

فإذا علمنا بعد ذلك أنه كان على الباشا أن يرسل إلى الآستانة خراجاً سنوياً قدره ٦٠٠ ألف ريال ، خلاف الهدايا من السكر والبن والأرز والشاي والغلل بما لا تقل قيمته عن ٦٠٠ ألف ريال أخرى (١) ، أدركنا لماذا كان يشبث الولاة في فرض الإتاوات وجمع الضرائب .

النظام القضائي :

بقي النظام القضائي كما كان قبل الفتح العثماني ، ولم يغير السلطان سليم شيئاً من هذا النظام ، وإنما عين قاضياً تركياً جعله أميناً على قضاء مصر . ولما تولى السلطان سليمان أبطل نظام القضاة الأربعة وأمر بتعيين قاض تركي برتبة « قاضي العسكر » ويسمى قاضي مصر ويرسلونه من الآستانة .

(١) تاريخ الحركة القومية - الجزء الأول - للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك .

وقد ترك البكوات الشراكسة عند استئثارهم بالسلطة هذا النظام قائماً بدون تغيير .

ولم يكن للقاضي في مصر رسوم معلومة ولا مرتب محدود . ولذلك عمت الفوضى وكثرت الشكاوى ، بخلاف الحال في العصر السابق للفتح العثماني ، حيث كان القضاة موضع إجلال السلاطين واحترامهم .

العلوم والآداب :

وكانت اللغة التركية هي لغة المخاطبات الرسمية . فأثر ذلك في حالة الآداب العربية ، وركدت حركة التأليف ، وقل عدد المدارس وتبددت المكاتب ، إذ أخذ العثمانيون كثيراً من الكتب والمخطوطات إلى الآستانة فمدهورت حالة البلاد وركدت النهضة العظيمة التي كانت مترعرة في العهد السابق .

أضف إلى كل ذلك انتشار الأوبئة والأمراض التي كانت تحصد الألوف من الناس ، وعبث الجنود العثمانية ، ومخاصمات الوالي المستمرة مع الجند ، كل هذه العوامل كانت وبالا على مصر ، فأضعفتها ، ووقف فيها دولاب الرقي أو كاد .

مسؤولية البكوات :

وفي هذه الأحوال العسيرة ، كان يعمل البكوات . وهم — كما نرى — ليسوا مسؤولين عن هذا الوضع ، بل الواقع أن كثيراً منهم

عملوا جاهدين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، كما سنرى من سير بعضهم في فصل آخر من هذا الكتاب .

وتحامل الكتاب على البكوات ذلك التحامل الشنيع ، وتحميلهم كافة المسؤولية لتدهور الحال في ذلك العصر ، ليس له مبرر . ولا شك أن بعض هؤلاء البكوات لم يكونوا ملائكة ، ولكن في رأينا أن عوامل كثيرة خارجة عن إرادتهم كانت تسيطر على الموقف ، وتدفعهم إلى ما كانوا فيه . وسنرى فيما بعد كيف استطاع أحدهم — وهو على بك الكبير — الاستقلال بحكم مصر ، فخطت البلاد في عهده خطوات واسعة ، وتوطد الأمن ، وزالت المظالم . فأثبت بذلك أن مصر تدهورت منذ أن فقدت استقلالها ، واستولى العثمانيون على أموالها ، وأخذوا صناعاتها وأرباب الحرف فيها إلى الآستانة .

الفصل الثاني

قاسم وإسماعيل

تولى قاسم عيواظ بك مشيخة البلد عام ١١٢٠ هـ وعمره ستة عشر عاماً . وهو زعيم الطائفة القاسمية — وهو حزب كبير من أحزاب بكوات الشراكسة . وقد قال عنه الجبرتي : « إن أيامه كانت سعيدة ، وأفعاله حميدة ، والأقليم في أمن وأمان من قطاع الطرق وأولاد الحرام . وكان صاحب عقل وتدير وسياسة في الأحكام ، وفطنة ورئاسة وفراسة في الأمور » .

ومن أعماله أنه جدد سقف الجامع الأزهر ، وأنشأ مسجد سيدى إبراهيم الدسوقي بدسوق ، ومسجد سيدى المليجي بمليج . ومن مآثره أنه كان يرسل الغلال إلى الحرمين في أوانها ، ويتصدق على الفقراء ، حتى أحبه الجميع .

وعندما تعين حسن باشا والياً من قبل السلطان ، لم يعجبه تعلق الناس بقاسم بك ومحبتهم له . فأثار عليه منافسيه من الحزب الآخر ، برئاسة ذو الفقار بك . وقامت بين الطرفين مشاحنات ومصادمات دموية ، انتهت بقتل عيواظ بك عام ١١٣٦ هـ ، وعمره ٣٢ عاماً . ولما بلغ نعيه أهل الحجاز حزنوا عليه حزناً شديداً ، وصلوا عليه

صلاة الغائب عند الكعبة ، وكذلك فعل أهل المدينة فصلوا عليه بين المنبر والمقام . (١)

وبعد مقتل قاسم بك ، تولى ابنه اسماعيل مكانه ، ولم يستطع الباشا إلا المصادقة على هذا التعيين . وكان اسماعيل بك كوالده عاقلاً حكيماً . فسعى إلى الوفاق مع أعدائه ، وتمكن من ذلك . فاتحدت الطائفتان ضد الباشا . وتمكن اسماعيل بك بعد ذلك من خلع الباشا . ثم خلع الباشا الجديد ، واسماعيل بك فى منصبه مكتسباً ثقة الشعب ، حتى أنهم كانوا يحبونه إلى ما يشبه العبادة .

ويروى عن عدله وعلو أخلاقه روايتان ذكرهما الأستاذ المرحوم جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، قال : « وما يحكى عنه أن أحد تجار القاهرة فى أيامه ، وكان يدعى عثمان ، باع لأحد القبطية (لقب يعطى للحرس السلطانى) وكان قد أتى القاهرة بمأهورية مهمة ، ثلاثمائة قنة بن إلى أجل مسمى ، وكتب عليه بذلك كتاباً . فى أثناء مدة الاستحقاق جاء من الآستانة إعلان بخيانة القبطية والحكم عليه بالإعدام حالا . فغى به إلى الباشا

(١) تاريخ الجبرقى — الجزء الثالث

وقد جاء عن عيواظ بك فى كتاب « تاريخ مصر الحديث » للمرحوم جورجى زيدان :

« إن الناس أسفوا عليه وبكوه بكاء هم على حاكم عادل وأب حنون وأخ بار ، ولم يبق صديق ولا عدو حتى بكاه لأنه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً . بسلا أبى النفس » .

فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لإسماعيل بك بصفة كونه شيخ البلد ما كان من أمر البن ، فأجبر الباشا أن يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ففعل . فأصبح عثمان في حال من الممنوية لذلك الرجل لايعرف كيف يبينها . فلاح له أن يهديه علبة مرصعة وبعض القناطير من السكر النقي فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « إذا كان المال الذى حصلت عليه بواسطتى مالك ولك الحق به فأكون قد فعلت واجباتى والله يكافئنى فاذا قبلت هديتك أظلم نفسى . أما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالخيالة فقبولى هديتك يعد مشاركة لك بالخيانة . لكنى مع ذلك أقبل السكر الذى حملته الى على شرط أن تقبل ثمنه من وكيلى لأنى سأمره أن يدفعه اليك » .

« ويحكى عنه أيضاً أنه كان يأدب فى ليالى رمضان مآدبات ليلية يجتمع إليها العلماء والفقهاء والمشائخ وقرأة القرآن ولم يكن يسمح لغير هؤلاء الحضور فيها . فرأى ذات ليلة بين الحضور رجلاً عليه ملامح الكتابة واليأس فأوصى بعض الخدم أنهم متى ارفض الاجتماع يأتوا بهذا الرجل إليه ففعلوا فلما حضر بين يديه أعطاه قرآناً وأمره أن يتلو عليه منه سورة . فتوقف الرجل مرتجفاً ثم ترمى على قدمى البك متضرعاً وقال « يعيش سيدى البك إني رجل نجار لا أعرف القراءة وإنما أتيت إلى هذه المآدبة متلبساً بلباس الفقهاء لأملاً جوفى من

الطعام فإني في حالة من الفاقة شديدة . فأ نصفه ولم يكثف بالإغضاء
عن ذنبه هذا بل جعله في عداد خدمته وجعل لعائلته راتباً معيناً
وصار هذا النجار بعد ذلك من أصدق الخدم وأكثرهم غير
وهمة ، ٥١ .

وبقي إسماعيل بك في منصبه هذا مدة ست عشرة سنة ، قلب على
مصر أثناءها عدة باشوات لم يكونوا إلا إسماء بلا رسم . إلا أن أحد
هؤلاء الباشوات تمكن أخيراً (عام ١١٣٦ هـ) من بذور الشقاق
مرة أخرى بين الطائفتين الشركسيتين ، وحرص الباشا ذو الفقار
على اغتيال إسماعيل بك . فاغتماله في إجتماع الديوان ، ونقلت جثته
إلى باب اللوق حيث دفن بجوار أبيه . وتولى المشيخة مكانه ذو الفقار
بك ، وكان شرساً قاسياً ، سفاكاً للدماء ، فقتلوه عام ١١٤٢ هـ ، وتعين
مكانه عثمان بك .

الفصل الثالث

عثمان بك . إبراهيم بك . رضوان بك

بعد أن تولى عثمان بك ذو الفقار مشيخة البلد ، رقى كثيراً من رجاله الى رتبة البكوية . وكان عثمان بك عادلاً حازماً مع شيء من الصرامة ، لا يراعى في تنفيذ العدل جانباً . حكى مرة أن أحد بكواته سعى في إقليمه ظليماً فاستدعاه إليه وإذ تحقق من فساده قطع رأسه .

وحكى مرة أن حماراً من القاهرة أراد ترميم بيته ، فعثر في أحد جدرانها على وعاء مملوء ذهباً ، فأخذ الوعاء وسلبه إلى زوجته موصياً إياها بعدم الكلام لئلا تصادر الحكومة الذهب . فطلبت منه زوجته أن يشتري لها مصاغاً وثياباً فاخرة ، فأبى زوجها خشية أن يؤدي ذلك إلى كشف أمره . فاعتاضت الزوجة ، وذهبت تشكو زوجها إلى عثمان ، فاستدعى الحمار ، وبعد أن سمع حكايته قال له : إحتفظ ما وهبك الله ، وطلق امرأتك وعش بسلام !

هذه أمثلة من تصرف هذا الرجل ، تدل على حكمته وعدله وكرهه للظلم والفساد .

وفي عهده حل بمصر وباء الطاعون ، ففتح عثمان بك مخازنه

وخزائنه و فرق الأقوات والأموال في الناس . تخفف ذلك من
شدة البلاء ، وفرج بعض كرب الناس .

إلا أنه مع كل ذلك ، لم يعدم عدواً يكيد له . فتآمر عليه إبراهيم
كخيا الانكشارى (وهو تركى) واسماعيل كخيا العزب —
وكلاهما من وجاقات الجيش — وتمكنان من إخراجهما من القاهرة ،
فصفا لهما الجو . وقد اتفق إبراهيم الانكشارى مع كيور أحمد باشا
الوالى على إبادة البكوات الشراكسة ، فقتلوا على بك الدمياطى ،
ثم اتفقوا على دعوة البكوات إلى القلعة ، ثم تقفل جميع المنافذ على
من فيها ويقتلونهم . ففقدوا هذه المؤامرة ، وأول من قتل من البكوات
خليل بك ومحمد بك ثم كثيرون غيرهم . وحاول على بك وعمر بك
البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسه ، ثم لاقاهما إبراهيم ورضوان
وقتلاهما عند باب القلعة . ولم يدفن من القتلى إلا خليل بك ومحمد
بك . (١)

وقد اتبع مثل هذه الطريقة فيما بعد محمد على باشا في التخلص من
الشراكسة ، كما سيبنى ذكره تفصيلاً فيما بعد .

بعد هذه المذبحة ، صفا الجو لإبراهيم الانكشارى ، وتعين
شيخاً للبلد . وأما شريكه رضوان بك فقد تعين أميراً للحج ، ثم
جعلاً يتبادلان هاتين الوظيفتين كل سنة . وقد ابتز الاثنان نقوداً

(١) تاريخ مصر الحديث للمرحوم جورجى زيدان — جزء ٢ ص ١١٢

كثيرة من الأهلين ، ووضعوا اليد على كثير من متمسكاتهم . وبلغ
الظلم في عهدهما منتهاه . (١)

وبينما هما في ذلك ورد إلى الباشا أمر سلطاني بقطع دابر البكوات
وعلى رأسهم شيخ البلد إبراهيم ومن يلوز به . فلما اجتمع شيخ البلد
وبعض البكوات في مجلسه أمر الحراس بقتلهم ، فقتل منهم ثلاثة .
إلا أن شيخ البلد تمكن من الفرار ، وعزل السلطان الباشا لافتضاح
أمره وعجزه .

وبعد ذلك الحادث بخمس سنوات ، تمكن شركسي اسمه إبراهيم
الشركسي من قتل إبراهيم الانكشاري (شيخ البلد) ، ثم قتل
رضوان بك ، فأخذ البلاد من شرهما .

في سنة ١٢٤٠ هـ الموافق ١٨٢٥ م .

في سنة ١٢٤١ هـ الموافق ١٨٢٦ م .

(١) يلاحظ أنهما ليسا من بكوات الشركسية .

الفصل الرابع

على بك الكبير

(١٧٥٥ — ١٧٧٢ م)

من شيخ البلد إلى سلطان مصر :

بعد مقتل شيخ البلد السابق، تولى المشيخة على بك الذي تميز في التاريخ بعد ذلك باسم على بك الكبير .

وكان استلامه مشيخة البلد في القاهرة عام ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) وكان من أشجع الرجال الذين برزوا في تاريخ مصر وأشدّهم حنكة وذكاء . ويمت في أصله إلى شراكسة الكوبان بالقوقاز (١) .
كان على بك واسع الأفق بعيد المطامع . وقد جعل هدفه قهر

(١) في دائرة المعارف الاسلامية « البلعة الانجليزية » الجزء الأول ص ٢٩١/٢٩٢ أنه ولد عام ١٧٢٨ بالقوقاز ، وسماه أبوه (يوسف) وكان أبوه قسيساً شركسياً اسمه داود . ولما بلغ يوسف الثالثة عشر من عمره ، اختطفته عصابة باعته إلى أحد التجار واسمه أحمد ، فأحضره هذا إلى مصر وباعه إلى ابراهيم كتخدا ، فأمر بختانه وسماه (علياً) ، وجعل له مدرساً يعلمه القرآن واللغة العربية والعلوم بعد أن أعتقه ، وما لبث وفي العام ١٧٥٠ م حتى كان قد أصبح كاشفاً . وفي نفس السنة عينه الباشا أميراً للحج . وقد تمكن « على » أثناء رحلته إلى مكة من صد غارات البدو وقهرهم ، فعرف منذ ذلك الحين بعلي الجني . ثم رفاه الباشا (بيكا) ، وعينه رئيساً لديوانه .

جميع أعدائه داخلا وخارجا ، والاستقلال بحكم مصر ، إذ وجد أنه لا يمكن لمصر أن ترقى وتزدهر في ظل هذا الحكم العجيب . وقد ساعده في تنفيذ ما ربه صديقه أحمد بك الملقب بالجزار . وسبب تلقيبه بهذا اللقب أن بعض قبائل العربان في مصر السفلى كانت قد شقت عصا الطاعة على «على بك» فأنفذ إليها قائده أحمد مع قوة من رجاله فغلهم وشتت شملهم ، فلقبوه بالجزار . وقد لازمه هذا اللقب طيلة حياته . وهو الذى تولى حكم عكا فيما بعد ووقف وقفته المشهورة أمام جحافل نابليون فلم يستطع نابليون احتلال عكا . وسلت المدينة من غزو الفرنسيين .

وبعد هذه الحملة ، استمر على بك في حملته ضد اللصوص وأعداء الأمن ، فطهر منهم البلاد ، وسمى جهده لإصلاح شؤون الأمن بعد أن تعرضت البلاد مدة للقلق والاضطرابات ، فخافه أعداؤه ، واستتب له الأمر .

وكخطوة أخرى نحو تحقيق مطمحه الأكبر ، وهو الاستقلال بمصر عن حكم العثمانيين كلية ، عزل وأبعد جميع رؤساء قوات الأمن ، وعين مكانهم من الموالين له ، واستند في عزلهم إلى أسباب مختلفة (١) . ثم سعى إلى تقليل عدد القوات العثمانية في البلاد ، فأخر

(١) فيما يلى أسماء الذين رفاهم على بك إلى رتبة البكوية وكلهم من أنصاره :
رضوان بك ، على بك الطنطاوى ، اسماعيل بك ، خليل بك ، عبد الرحمن بك ، حسن بك ، يوسف بك ، ذو الفقار بك ، عجيب بك ، مصطفى بك .
أحمد الجزار بك ، لطيف بك ، عثمان بك ، إبراهيم بك ، مراد بك ، محمد بك الحازندار المعروف بأبى الذهب ، سليم آغا ، سليمان كخيا . وكلهم من الشراكة ماعدا الاثنين الأخيرين ، إذ كانوا من الانكشارية .

دفع مرتباتهم عمداً ، ثم أخذ يعطيهم بدل ماهياتهم أوراقا تخسر من قيمتها ٩٠ بالمائة عند الدفع ، فكان على بك يرجع من هذه الأوراق عند عودتها إليه أرباحا طائلة ، ويعيد صرفها بثمنها الأصلي . فلما رأى الجند أنهم لا يستفيدون من ماهياتهم ، عمدوا إلى الاستقالة من الجيش وانصرفوا إلى تعاطي أشغال أخرى أكثر فائدة لهم .

وقد اعترض الوالى التركى إذ ذاك — واسمه محمد باشا — على هذه الإجراءات ، فلم يكثرث على بك لاعتراضه ، واستمر فى تنفيذ خطته سرا وعلانية . وكان لعلى بك صديق اسمه محمد بك أبى الذهب ، وكان يحبه كثيرا حتى أنه زوجه بنته ، وكان يعامله كما يعامل أولاده . فاتصل به الوالى التركى لى يتوسط له عند على بك ويقنعه بالعدول عن سياسة العداء نحو الحكومة العثمانية ، إلا أن على بك استمر على عدم اكترائه . أما أبو الذهب ، فقد وقع تحت تأثير الباشا التركى ، الذى أغراه بالمبالغ الوافرة والمناصب العالية لو استطاع التخلص من على بك بقتله أو إبعاده . ولم يستطع أبو الذهب مقاومة هذا الإغراء ، فوعده الباشا بقتل سيده وصهره على بك . إلا أن على بك استطاع أن يعزل الوالى التركى ، وأعادته إلى استانبول . ورغمما كان ينقل إلى على بك من مساعى أبى الذهب لقتله ، لم يزد إلا ثقة به ، ولم يصدق ما كانوا يقولونه عنه .

وفى هذه الأثناء حضر الباشا التركى الجديد ، ومعه أمر سلطاني

بقتل على بك وإرسال رأسه إلى استانبول . فاتصل خبر ذلك سرّاً
بعلى بك بواسطة جواسيسه في استانبول ، فأرسل أحد أتباعه ،
على بك الطنطاوى ، فى عشرة من الجند لملاقاة الباشا والقابيجى باشى
حامل فرمان السلطانى ، وتجريدهم من فرمان . فكشوا فى الطريق
ثلاثة أيام ينتظرون مرورهم ، وفى اليوم الرابع مر القابيجى باشى
ومعه ثلاثة من الجند ، ولم يكن الباشا معهم إذ كان سببهم إلى القاهرة .
فاستولى على بك الطنطاوى ومن معه على فرمان ، وعادوا به إلى
على بك . فلما اطلع عليه على بك ، أمر بدعوة الأمراء وسائر
البكوات ، وقرأه عليهم ، ثم وجه اليهم الخطاب التالى :

« إن هذا الأمر ليس لقتلى وحدى ، وإنما لقتلكم جميعاً .
دافعوا إذن عن حياتكم وحقوقكم ، واعلموا أن مصر ما برحت منذ
القدم محكومة بدول من الشراكسة ، وقد كانوا سلاطين أشداء تفاخر
بهم الأرض والسماء ، فأعيدوها اليهم . وهذه فرصة ثمينة لاتضيعوها ،
فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها . هلم إذا نسعى إلى الاستقلال ،
فإن فيه حياتنا وحریتنا . »

إعلان الإستقلال :

وقد تأثر الحاضرون بهذا الخطاب ، كما سحرتهم بلاغة على بك
وفصاحته . فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا . فكُتب على بك
أمراً إلى الباشا التركى بأن يباح الأراضى المصرية خلال مدة
٤٨ ساعة ، فإذا لم يفعل قبض عليه وأعدمه ، كما أعلن فى أرجاء

مصر أنها لم تعد تابعة للدولة العثمانية ، فأعلن بذلك استقلالها من جديد ، وذلك عام ١١٨٣ هـ .

أما إستانبول ، فقد هزتها تلك الأنباء . وسيرت على مصر جيشاً من سوريا عدده عشرين ألفاً بقيادة والي دمشق . فلاقاه الشيخ ضاهر أمير عكا بقوة لاتزيد على الستة آلاف ، بينهم أولاده وأحفاده السبعة ، (وكان الشيخ ضاهر قد أعلن تبعيته لعللي بك بمصر) . وتمكن الشيخ ضاهر بهذه الآلاف الستة من تشتيت العشرين ألف عثمانى وردهم على أعقابهم ، وذلك في موقعة بالقرب من طبريا عام ١١٨٣ هـ . وبعد هذه الموقعة أمسك الباب العالي عن إرسال الجند ، وصرف العثمانيون جهدهم لمحاربة روسيا التي كانت قد أعلنت عليهم الحرب .
أعماله وفتوحاته :

أما على بك ، فقد هزه هذا النصر وأطربه . فأقسم ليعملن على رفعة شأن مصر ، ورفاهية شعبها . فخفض الضرائب ، وأعاد تنظيم الحكومة ودواوينها على أساس جديد يكفل حسن السير فيها ، وراحة المحكومين . وعين على المالية مدير الجمارك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي . كما نظم التجارة الخارجية ، وأبعد العربان إلى الصحراء ، فساد الأمن ، وانتشر الإصلاح بالقطر ، ولقبه الناس « بمبيد اللصوص » . (١)

وفي سنة ١١٨٣ هـ ثار عليه عربان الصعيد ، وأشهرهم قبائل
الهوارة (وقد جاءوا من تونس الغرب واستقروا فيما بين جرجا
وفرشوط) فأنفذ اليهم على بك صهره وصديقه محمد بك أبي الذهب ،
خاربهم وتغلب عليهم ، وجردهم من كل ثروتهم إبقاء على حياتهم .
وبعد أن استتب الأمر في الصعيد لعلي بك ، جرد حملة لافتتاح
الين بقيادة محمد بك أبي الذهب . فسار في عشرين ألف رجل ،
وقطع برزخ السويس ، ومضيق العقبة ، ولم يبق على أحد من القبائل
التي حاولت الوقوف في طريقه ، وما زال حتى بلغ اليمن وافتتحها .
وفي طريقه إليها افتتح جدة وسواحل البحر الأحمر . وبعد ستة
أشهر من سير الحملة تم احتلال شبه جزيرة العرب بأكملها وفي جملتها
مكة المشرفة ، وعاد أبو الذهب إلى مصر بهذا النصر فاحتفلت به
القاهرة احتفالا مناسبا .

وبعد افتتاح مكة ، أرسل شريفها الأمير عبد الله إلى علي بك
الكبير يثبته على ملك مصر ، ويقبه « بسلطان مصر و خاقان
البحرين » . فأعجب هذا اللقب على بك وأمر بأن ينادى به ، وأن
يخطب باسمه في صلوات الجمعة ، وضرب النقود سنة ١١٨٥ هـ في
القاهرة باسمه . وبذلك حقق مطامحه كاملة .
خيانة محمد بك أبي الذهب :

بعد افتتاح شبه الجزيرة العربية ، والتوفيق الذي أصابه في ذلك
محمد بك أبو الذهب ، قرر على بك الكبير (السلطان الآن) تحصين
حدوده السورية ، وحماية مملكته الجديدة من خطر الغزو العثماني

في المستقبل . فسير على بك أبا الذهب على رأس جيش قوامه ثلاثون ألفاً لهذا الغرض ، وأمره باحتلال سوريا وإعادتها إلى حظيرة الممتلكات المصرية . وفي نفس الوقت افتتح المخابرات مع الدول المعادية لتركيا بنية عقد محادثات دفاعية هجومية بينها وفوقت روسيا على ذلك (وكانت قيصرتها في ذلك الحين كاترينا الثانية) كما وافقت عليه حكومة فينيسيا (البندقية) بإيطاليا . أما جيوش على بك ، فقد احتلت في زحفها غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا ، إلى أن بلغت دمشق فحاصرتها ، ولم تلبث أن سلمت لعلى بك .

إلا أنه مما يؤسف له أشد الأسف ، أن يقدم هذا الرجل الذي وضع على بك ثقته التامة فيه ، وقربه اليه ، وزوجه من إحدى بناته ، على خيانة سيده ومليكه . فقد أسكرته نشوة تلك الفتوحات ، وتحارب مع الآستانة بشأن عزل على بك الكبير وإعادة مصر إلى حظيرة الممتلكات العثمانية ، فجاءه الرد من الآستانة بالإنجاب ، ووعدوه بالمساعدة ، وأغروه بالألقاب . فما كان من هذا الخائن إلا أن حول جنوده وجهة مصر ، ولكنه لم يحسر على المسير رأساً إلى القاهرة ، بل تحول إلى الصعيد ، وعسكر في أسيوط مدة ، ثم سار على القاهرة على رأس جيش كبير ، فبلغ ضواحيها في أوائل سنة ١١٨٦ هـ . وعسكر بالقرب من مصر القديمة .

فلما علم على بك الكبير بهذه الأنباء ، حزن حزناً شديداً لخيانة زوج ابنته وصديقه القديم ، ولكنه عزم على المقاومة . وفي هذه

الآناء وردت الى على بك رسالة من أحد أبناء صديقه الشيخ ضاهر
والى عكا بأن يبارح القاهرة حالا ويأتى الى أبيه فى عكا . فبارح
على بك القلعة ومعه بعض رجاله (١) ، ونسائه ، وسار الى سوريا
عن طريق الصحراء . وفى اليوم التالى دخل أبو الذهب القاهرة
(مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ) .

وفى طريقه الى سوريا ، هاجمته بعض القبائل البدوية ، ففر جزء
من رجاله ، كما نهب البدو بعض الجمال المحملة بالأرزاق والنقود .
وقد استطاع على بك أن يبلغ عكا بعد ثمانية أيام من تركه القاهرة ،
فرحب به أميرها ، إلا أنه كان يكابد المرض الشديد من جراء ما
انتابه من الحزن الشديد ، وما كبده أثناء السفر .

وبعد أن استراح بضعة أيام ، استعرض الموقف . وكانت قد جاءت
بعض الأسلحة عن طريق بعض السفن الروسية ، فعزم على استرجاع
ملكه وقهر أبى الذهب . فأمر أحد قواده المخلصين واسمه على بك
الطنطاوى (تمييزاً له عن على بك الكبير) باسترجاع المدن السورية
التي دخلت فى حوزة أبى الذهب . فسار واحتل صور وصيدا
وحاصر يافا خمسة أشهر واحتملها بعد ذلك ، وفى أثناء الحصار أخذ
غزة عنوة ، وسلبت له اللد والرملة بلا قتال . فأعاد يافا الى إمرة
الشيخ ضاهر ، وجعل على اللدحسن بك الجداوى (٢) ، وعلى الرملة
سليم بك .

(١) يقال أن عدد رجاله كان ستة آلاف رجل بينما كانت قوة أبى الذهب
تزيد على أربعين ألفاً .

(٢) وهو شركسى ، ولقب بالجدادى لاحتلاله جدة أثناء حملة أبى الذهب
على اليمن كما تقدم .

الزحف على القاهرة وخيانات جديدة :

وفي ٩ ذى القعدة سنة ١١٨٦ هـ وصلت إلى على بك (وكان في يافا) رسل من القاهرة تدعوه إلى استعادة مملكته ، وتشكو إليه ظلم أبي الذهب ووطأة حكمه . وأغروه بأن القاهرة ستفتح له أبوابها ترحيباً لاستقبال مملكها القديم ، وأن الشعب سيفتك بأبي الذهب فيما لو حاول أن يأتي بما يخالف الإجماع .

وقد هزت هذه الأقوال مشاعر على بك ، وعزم على إنقاذ مصر من أبي الذهب وبطشه . فسار على رأس ٨ آلاف رجل ، منهم ٣٥٠٠ من المغاربة استأجرهم للقتال ، وفي ١١ محرم سنة ١١٨٧ وصل على بك إلى خان يونس ، وفي ١٦ منه التقت قواته بطلائع قوات أبي الذهب ، وعددها ١٢ ألف مقاتل . وبعد قتال بضع ساعات غلبهم على بك ، واحتل بلدة الصالحية ، بعد أن أصيب بجروح خلال المعركة ، منعتهم من امتطاء جواده وقيادة جنوده ، وأصيب على أثرها بجرحى شديدة .

وكان أبو الذهب قد جمع جنوده ، وسار على رأسهم للملاقاة على بك . فلما علم « على بك » ذلك ، لم تمنعه الحمى أو الجراح من الاستعداد للقتال ، فنظم قواته القليلة ، وعين على الجناح الواحد على بك الطنطاوى ، وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر ، وقاد هو جنود القلب . ونشبت المعركة ، ففازت جنود على بك وقاربت النصر

التام . فأرسل أبو الذهب جواسيسه إلى المغاربة يغريهم على الخيانة بالذهب . فلما جاء اليوم التالي ونشب القتال ، انحاز المغاربة إلى جنود أبي الذهب ، ومعهم مراد بك الذى كان أغراه أبو الذهب بأن يعطيه « نفيسة » زوجة على بك التى كان يحبها حباً شديداً لجمالها وذكائها . فلما رأى جنود على بك هذه الخيانة الجديدة هبطت عزائمهم ، وقتل الطنطاوى ، واستطاع بعض الآخرين النجاة ، ففروا إلى خيمة على بك وأنباؤه بما حدث ، طالبين منه أن يسير معهم طلباً للنجاة . فأبت نفسه الكريمة ذلك ، وخاطب الداخلين عليه بقوله : « إني ملازم هذا الموضع لأبارحه حتى تبارحنى نفسى ، لأن الموت فيه أفضل عنسدى من الفرار . أما أتم ، فإذا شتم النجاة بأنفسكم فبادروا إلى الفرار قبل أن يغشاكم ما ربما لا تقوون على دفعه » . فودعوه ، واتجهوا نحو خان يونس قاصدين غزة .

نهاية البطل :

وبعد بضع ساعات ، حضر إلى خيمته خمسون رجلاً تحت قيادة الكنجيا نائب محمد أبى الذهب ، فوثبوا على « على بك » في فراشه ، وكان المرض مشتدداً عليه من تأثير الجراح ، لكنه نهض وجرّد سيفه فقتل أول مهاجم ، ثم قتل اثنين آخرين ، واستعد للقضاء الباقين . ولكن أنى لهؤلاء الرعايد الاقتراب من ذلك البطل ؟ لقد أخذهم التردد بعد مقتل ثلاثة من رفاقهم ، فما كان منهم الا أن أطلقوا عليه البنادق دفعة واحدة ، فجرّحوه جراحاً بليغة جديدة في ذراعه اليمنى ، وأما كن أخرى من جسمه . ولكن على بك لم يمت ولم يستسلم ، بل أمسك

سيفه بيسراه ، وقتل من مهاجميه عدداً آخر ، إلى أن وثب عليه
الكتيخا بنفسه ، فقاتله على بك قتالاً شديداً ، وأصيب في ذراعه اليسرى
ونخذه وخصرته ، فسقط على الأرض لكثرة ما نزف منه من دماء ،
وهو لا ينفك عن الدفاع . فتكاثر عليه الجند ، واستطاعوا القبض
عليه ، وما زال قلبه ينبض بالحياة ، فأخذوه إلى أبي الذهب وألقوه
عند قدميه . فأمر بحمله إلى القاهرة فحملوه إليها وأنزلوه في داره بدار
عبد الخالق في شارع البكرى . فلبث فيها سبعة أيام ، وهو يغالب
الموت . وفي اليوم الثامن توفاه الله ، ويقال أن أبا الذهب وضع له
السم في جراحه فقتله ، وهو الذى لم يقر خمسون رجلاً على قتله
بالسيوف والبنادق !

وهكذا مات هذا البطل الخالد . ولولا خيانة أبي الذهب ،
وخيانة المغاربة ، وطمع بعض الرجال ضعاف القلوب ضعاف الخلق ،
لتحول وجه التاريخ وتمكنت مصر من استعادة حريتها واستقلالها ،
ولسارت خطوات واسعة إلى الأمام . وذلك لما اتصف به على بك
الكبير من صفات الملك وحبه لرعيته ورغبته الشديدة في الإصلاح .
وكان إلى جانب ذلك صحيح الفراسة شديد الذكاء يقرأ الوثائق
والأوراق الرسمية بنفسه ولا يختم ورقة حتى يقرأها ويزن ما جاء
فيها . وكان واسع الاطلاع ، عريض الأفق ، عظيم الهيبة ، حتى
اتفق لأناس أنهم ماتوا من شدة هيئته ، وكانت تأخذ الرعدة بعضهم
بمجرد المشول بين يديه ، فيهن عليهم ويتبسط معهم .

وبوفاة على بك عادت مصر وممتلكاتها مرة أخرى تابعة للدولة العثمانية . وابتدأ عصر جديد من الفوضى . وكان على بك قد وضع حداً أثناء حكمه لسل ذلك فأصلح الشؤون وصان حقوق الناس وأمنهم ، حتى تعلقت به الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها (١) ولكن موته — بيد أخلاص أصدقائه — وضع حداً لكل ذلك .
بعض مآثره :

ومن مآثر هذا الرجل — عدا أعماله السياسية والحربية — قيامه بكثير من المشاريع العمرانية والإنشائية . ومنها : المسجد العظيم بطنطا ، والقبعة على مقام السيد البدوي ، وقبة الامام الشافعي ، والوكالات التي أنشأها ببولاق ، والسور العظيم الذي أنشأه حول بولاق للدفاع ، وكثير من المدارس والسبل والجسور والمساجد ، هذا بخلاف القلاع والمعقل والطوابي التي أقامها للدفاع عن مصر . (٢)

(١) المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ مصر الحديث جزء ٢ ص ١٣٤
(٢) من أمثلة التجنى على الرجال والتاريخ ، ما يقوله الأستاذ أحمد حافظ عوض بك فى كتابه (فتح مصر الحديث) — ص ٢٠ — فى معرض الكلام عن على بك الكبير : « وليس غرضنا شرح تاريخ على بك ، فان الغرض من هذه المقدمة هو بيان ما كانت عليه أحوال مصر عند الحملة الفرنسية ، وإنما أردنا من ذكر قيام هذا (الملك) بمنأوة الدولة العثمانية ، إظهار أن سياسة الدولة فى مصر كانت عقيمة ، وأنها تركتها ألعبه فى أيدي أولئك الممالك الأفاقين السفاكين للدماء ، الطامعين فى الاستزادة من السلطان » . فهل هذا كلام يقال فى حق رجل أراد العزة والاستقلال لبلده ، وكان عصره من أجل العصور وأزهاها بشهادة كبار المؤرخين الثقات ؟ أم إن طلب الاستقلال أصبح عيباً فى نظر بعض الكتاب ؟ أسأنا على حق حين قلنا إن بعض مؤرخي هذا العصر قد ملكتهم شهوة لا ندرى مصدرها ، ولكنها على كل حال ليست شهوة البحث العلمى المنزه عن الأغراض ؟ !

الفصل الخامس

أبو الذهب ، مراد بك ، إبراهيم بك

(١٧٧٣ — ١٧٩٨ م)

أبو الذهب :

بعد وفاة على بك الكبير ، استتب الأمر لأبي الذهب ، الملقب « بالخائن » . وقد ترك له السلطان العثماني حرية التصرف في مصر ، وثبته على الولاية مع لقب باشا . فكان أن عمل على تعقب رجال على بك والفتك بهم ، وكان أهمهم في نظره الشيخ ضاهر والى عكا . فجمع جيشاً سار على رأسه ووجهته فلسطين ، ولم تنمه سنة ١١٨٩ هـ حتى كانت فلسطين بأكملها في يده ، ماعدا ولاية عكا .

وكان أن اعترضت مدينة يافا طريقه ، فحاصرها ، ثم احتلها عنوة ، وأمر بقتل القسم الأعظم من سكانها ، ونهب ممتلكاتهم . وبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر في عكا ، فغشى أن يفتك أبو الذهب بأهالي مدينته كما فتك بأهالي مدينة يافا . ففضل ترك عكا رفقاً بأهلها ، إلا أن أبا الذهب صمم على الانتقام من السكان المساكين ، فأعمل فيهم القتل وفي مدينتهم السلب والتخريب ، وكذلك فعل بكافة المدن التي اعترضت سبيله .

إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يترك هذا الرجل يتمادي في فحشه وظلمه ، إذ وجد أثناء استعداده للرجوع إلى مصر ميثاقاً في فراشه ، واختلفت الآراء في موته . فمن قائل أنه مات بداء النقطة ، وقال آخرون بل إنه قتل مسموماً بيد أحد رجاله إنتقاماً لضحاياه الكثيرين . وكان موته عام ١١٨٩ هـ ، فلم يتمتع بنتائج خيانتة أكثر من عامين اثنين .

وبعد وفاة أبي الذهب ، تولى مراد بك إمرة الجيوش ، فعاد بها إلى مصر ومعه جثة رئيسه ، وتولى مشيخة البلد إسماعيل بك الذي كان استخلفه عليها أبو الذهب عند خروجه لافتتاح عكا . كان إسماعيل بك هذا يدعى أنه من أنصار علي بك الكبير ، وأنه اضطر إلى مجازاة أبي الذهب خوفاً من بطشه . ولذلك فإنه عمداً بعد إعلان مشيخته إلى ملاينة أتباع علي بك وملاطفتهم . إلا أن مراد بك ، وزميله إبراهيم بك ، وهما من البسكوات الشراكسة الذين كانوا قد انحازوا إلى أبي الذهب ، لم يعجبهما ذلك التصرف ، واضطرا إسماعيل بك إلى الفرار ، فخلاهما الجو ، واقتهما الأحكام ، فتعين مراد أميراً للحج وإبراهيم شيخاً للبلد . وأما الإيراد فاقسماه فيما بينهما بالتساوى .

مراد بك : (١٧٧٥ — ١٧٩٨ م)

وصف الجبرقي مراد بك بقوله : « كان أشقر اللون ، مربوع

القامة ، كث اللحية ، غليظ الجسم والصوت ، بوجهه أثر ضربة سيف ، ظالماً غشوماً متهوراً ، محتملاً متكبراً ، إلا أنه كان يحب العلماء ويتأدب معهم وينصت لكلامهم ويقبل شفاعتهم . وقيل عنه إنه كان يستطيع أن يقطع رأس الثور بضربة واحدة من حسامه . وهيئته كهيئة الليث الغضنفر ، لم يبارِه أحد في ميدان القتال ، وإذا غضب ارتعش الواقف أمامه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . ومع هذا فقد كان كريماً جواداً ، كريم العفو ، سريع الغضب سريع الرضاء ، يقدر كفاءة الناس حتى أعداءه . مخلصاً لأصدقائه ، باراً بوعده .

إبراهيم بك : (١٧٧٥ — ١٧٩٨ م)

وأما إبراهيم بك ، فهو زوج أخت محمد بك أبي الذهب . ترقى إلى رتبة البسكوية عام ١١٨٢ هـ ، وعين في عام ١١٨٦ هـ أميراً للحج . وبعد عودته عين دفترداراً . ولما خرج أبو الذهب على رأس الحملة السورية عهد إليه بولاية مدينة القاهرة ، وعهد إلى اسماعيل بك بولاية مصر بصفة « قائمقام » (عام ١١٨٩ هـ) . ولما مات أبو الذهب ورثه إبراهيم بك بصفته أقرب الناس إليه ، كما ورث عنه النفوذ والسلطة .
محاربتهم مع العثمانيين :

بعد اعتلائه العرش ، قرر السلطان عبد الحميد استرجاع النفوذ العثماني في مصر ، وقهر البسكوات . فأرسل جيشاً جديداً بقيادة حسن باشا ، فوصل ميناء الإسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ هـ

ولما وصل نبأ ذلك إلى إبراهيم ومراد ، عبثا جيشاً وساروا على رأسه للملاقاة العثمانين ومنعهم من الوصول إلى القاهرة . فالتحم الفريقان عند الرحمانية ، في معركة قصيرة الأجل ، أسفرت عن انتصار العثمانين بفضل مدافعهم . وفر مراد وإبراهيم مع من بقي من رجالهما إلى الصعيد .

وفي طريقها إلى القاهرة نهبت الجنود العثمانية المدن والقرى . وفي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخلت مدينة القاهرة ، فأمر قائدها حسن باشا بمصادرة أمتعة المنهزمين ، وعرض نسائهم وأطفالهم للبيع . فلم يرق ذلك للمشايخ ورجال الدين لمخالفته لأحكام الشريعة الإسلامية ، وذهبوا لمقابلة حسن باشا . فاتهرهم ، ولكنهم ثبتوا أمام تهديده قائلين : « لقد أرسلت إلينا لمعاينة شخصين مجرمين وليس لهنك شرائعنا والطعن في عوائدنا ، فاكتب إلى الآستانة ماشئت » . فاستثنى الباشا النساء الحوامل من البيع ، وبيع الباقيون !! (١) وكان حسن باشا هذا من أفضع الرجال الذين رأتهم مصر . إذ كان فظاً غليظ القلب ، فبدلاً من إصلاح الحال أفسده ، وزاد الطين بلة . وفضلاً عن انتهاك حرمت المسلمين ، وبيع أطفالهم ونسائهم ، أمر باضطهاد أهل الذمة من النصارى واليهود وصادر أمتعتهم وباعها بالمراد العلني ، وقبض على زوجة المعلم إبراهيم الجوهري أمين المحاسبة وأمرها بأن تدله على نقود زوجها ، وأهانها ، فدلته .

وكان مراد بك وإبراهيم بك في هذه الأثناء ما زالوا محتبئين في الصعيد ، ولم يستطع حسن باشا أن يظفر بهما بالرغم من الحملات المختلفة

(١) تاريخ الجبرق — الجزء الرابع .

التي سيرها على الصعيد لأسرهما أو قتلتهما . فلما رجع حسن باشا إلى استانبول ، ظهر مرة أخرى ، ودخلا القاهرة في ٢١ ذى القعدة عام ١٢٠٥ هـ ، فاستلبا مرة أخرى زمام الأحكام ، وانتقما من أعدائهما ، وألزما الباشا التركي قلعة لا يبرحها بغير إذنهما . وكان قد تولى السلطنة العثمانية السلطان سليم بعد وفاة السلطان السابق . فلم يعرف كل هذه الحوادث إهتماماً ، وهكذا عاد إبراهيم ومراد إلى اقتسام النفوذ في البلد .

مادة البهر في هذا العصر

التجارة والجمارك :

كان التجار أغنى طبقات الشعب ، ووصل بعضهم إلى درجة عظيمة من الثراء . وكان لمصر جمارك في ثغورها التجارية مثل القاهرة والسويس ودمياط ورشيد والاسكندرية . وكان إيراد هذه الجمارك مقسماً بين مراد بك وإبراهيم بك . وكان إبراهيم بك يقيم من أتباعه عمالاً يحصلون مكوس الجمر ، بخلاف مراد بك فإنه أعطى جمارك الثغور التي كانت في قسمته لأربعة « ملتزمين » ، وجعل على كل منهم خراجاً معيناً يؤدي إليه في أوقاته ، وينالونهم إيراد الجمارك ويتكفلون بمصاريف إدارتها كمرتبات العمال والكتبة . وكان إيراد جمارك القطر المصري وقتئذ نحو ثلاثة ملايين فرنك (١٢٠٠,٠٠٠ جنيه) . (١)

الزراعة والصناعة :

كانت الزراعات المعروفة في مصر هي الجيوب والقطاني والأرز

(١) تاريخ الحركة القومية — الجزء الأول — للاستاذ عبد الرحمن بك الرافعي .

وقصب السكر والبرسيم والسمسم والكتان والبصل . وكان القطن يزرع في بعض جهات الوجه البحرى والصعيد . كما كان ينسج في بعض معامل النسيج بمصر .

وقد اقتضت الأعمال الصناعية على بعض الصناعات الثانوية ، وكان لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى « شيخ طائفة » ، ولهؤلاء وكلاء يعرفون بالنقباء . وكان لهذا النظام بعض المزايا في ترقية الصناعة وتعليم الصناع المبتدئين .

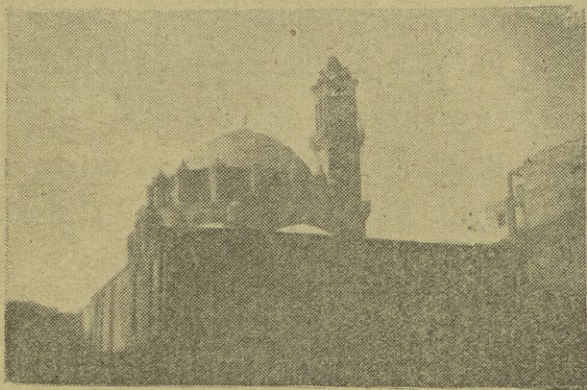
ومن الصناعات المزدهرة في ذلك العصر : إعتصار الزيت من البذرة ، وضرب الأرز ، واستخراج السكر من القصب ، واستخراج الخل من البلح أو الزيت ، واستقطار ماء الورد والعرق وبعض أنواع الخمر ، وصناعة المربات وأصناف الحلوى ، وصناعة الجلود ، وحياكة المنسوجات من القطن والكتان والصوف ، والغزل بالمغازل اليدوية ، وصناعة اللباد ، والبسط المعروفة بالأكمة ، والتطريز ، ودباغة الجلود ، وصناعة الأحذية والسروج والسيور وما إليها ، وصنع الجير ، وضرب الطوب ، والأواني الخزفية ، وغيرها .

التقسيمات الإدارية :

كانت مصر مقسمة إدارياً في هذا العصر إلى ستة عشر إقليماً هي : البحيرة ، ورشيد ، والغربية ، والمنوفية ، والمنصورة ، ودمياط ، والشرقية ، والقليوبية ، والجيزة ، وأطفيح ، وبنى سويف ، والفيوم ، والمنيا ، وأسيوط ، وجرجا ، وقنا .

وبلغ عدد سكان القاهرة في ذلك العصر حوالى ثلاثمائة ألف
نفس ، وبلغ سكان الاسكندرية ٨,٠٠٠ نفس ، والمحلة الكبرى
١٧,٥٠٠ نفس ، والمنصورة ٧,٥٠٠ نفس ، والجيزة ٣,٠٠٠
نفس ، وأسيوط ١٢,٠٠٠ نفس ، ورشيد ١٣,٠٠٠ نفس
ودمياط ٢٠,٠٠٠ نفس .

وقد بلغ عدد سكان القطر المصرى بكامله في ذلك العصر حوالى
ثلاثة ملايين نفس ، وكان عدد الشراكسة ومن إليهم حوالى تسعة
آلاف شخص .



جامع محمد بك أبى الذهب بجوار الأزهر الشريف

الفصل السادس

حملة نابليون على مصر ونتائجها

كانت فرنسا في تلك الأثناء في صراع عنيف مع السياسة الإنجليزية . وكان نابليون يطمع للقضاء على تجارة الإنجليز مع الهند ، بأن يحتل مصر ، ويحفر قناة توصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وفي الفقرة التالية ، وهي من كلام طويل خاطب به نابليون رجاله عند استعدادده للهجوم على مصر ، المعنى الحقيقي الذي رمى إليه نابليون من احتلال مصر . قال :

« ولا يخف لكم أننا إذا ثبتنا قدمنا في مصر لا تلبث إنجلترا طويلة في الهند . فإننا نجعل على سواحل البحر الأحمر حاميات نقيمها في معازل منيعة ، نذخر فيها من تساج ذلك القطر وتحويل التجارة الهندية إليه . على أننا لو فرضنا بقاءها عن طريق رأس الرجاء الصالح كما هي الآن ، لأقمنا بيننا وبينها باباً للباراة ، وفتحنا ترعة بين السويس والنيل . ولا شك أننا إذا فعلنا ذلك نجبض مساعي إنجلترا جملة لأن التجارة تتحول بحملتها إلينا . فإذا فتحنا مصر لا تقصر منفعتها لنا كمنفعة سائر المستعمرات العظيمة ، ولكننا بها نعرقل مساعي إنجلترا ، فنكفي مؤونة مقاسومتها ، هذا إذا لم نذهب بها إلى الحضيض » .

فكانت حملة نابليون على مصر . وكان أول ظهورها على الشواطئ المصرية في يوم الاثنين ١٨ محرم سنة ١٢١٣ هـ . فكتب والى الاسكندرية السيد محمد كريم أحد الأشراف الوطنيين الى مراد بك و ابراهيم بك فى القاهرة ينبئهما بذلك . فلما تلا مراد بك الرسالة غضب وركب جواده قاصداً ابراهيم بك وكان قاطناً فى سراى القصر العيني . فلما وصل بعث الى بكير باشا والى وسائر الأعيان والأمراء يدعوهم الى عقد اجتماع مستعجل . وفى أثناء الاجتماع قال مراد بك ناظراً الى بكير بك شزراً « لا ريب أن الفرنسيين لا يحسرون على القدوم الى مصر من تلقاء أنفسهم فلعلهم جاءوا بأمر من الباب العالى . ولكننا لانبالى بمن تحدته نفسه بمداهمتنا بل ندوسه تحت حوافر خيولنا . والله قادر أن ينصرنا على الإثنين » .

وبعد المجادلة ، تم الاتفاق على اتخاذ خطة للدفاع ، بأن يسير مراد بك فى فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد نحو الاسكندرية لمنع الفرنسيين من التقدم نحو القاهرة ، وأن يعسكر ابراهيم بجنده على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة . وأرسل بكير باشا الى الاستانة يلتمس النجدة .

وفى مساء اليوم التالى أنزل نابليون جنوده الى البر ، فاحتلت الاسكندرية بعد قتال عنيف ، وفر السيد محمد كريم وجنوده الى قلعة فرعون ، ثم عاد واستسلم الى الفرنسيين . فاستماله نابليون ،

وأعاد اليه سلاحه ، قائلاً : « لقد أخذت سلاحك بالسيف وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنى أرد اليك سيفك آملاً أن تكون مساعداً أميناً للجمهورية الفرنسية كما كنت للحكومة السابقة على عقوها وظلمها . ثم سأله اذا كان يرغب فى معاضدة مشروعاتهم الذى هو تأييد سلطة الباب العالى وفتح سلطة «الماليك» فأجاب السيد محمد كريم بالاجاب . فعينه نابليون حاكماً لمدينة الاسكندرية تحت إشراف الجنرال كلايبر وبعد تلك الحادثة أصدر نابليون للأهالى منشوراً يحرضهم فيه على قتال «الماليك» ، ويوهمهم بأن الفرنسيين مسلمون أحباء سلطان العثمانيين ، وأنهم (أى الفرنسيين) لارغبة لهم إلا إعادة مصر إلى الحكم العثمانى (كذا والله) ... بينا «الماليك» قوم كافرون (كذا) . وختم منشوره بقوله : « وعلى المصريين جميعاً أن يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة الماليك قائلين بصوت واحد عال : أدام الله إجلال سلطان العثمانيين . أدام الله إجلال العسكر الفرنسيين . ولعن الله الماليك ! » (١)

أما مراد بك ، فإنه جمع فرسانه ، وأخذ معه كثيراً من المؤن التى صادر بعضها من الأهالى بدون ثمن ، كما أخذ معه بعض المدافع والبارود . وقبل مبارحته القاهرة أنشأ سلسلة من الحديد طولها ١٣٠ ذراعاً على عرض البوغاز عند برج « مغيزل » من البر إلى البر لمنع مرآكب الفرنسيين من المرور . ونصب عند هذه السلسلة عدداً

من المدافع . وما زال مراد بك سائراً بمن معه حتى شارف طلائع الفرنسيين عند قرية شبرايس ، فاشتبك معهم وظهر عليهم حتى أوشك الفرنسيون على الانهزام . إلا أنه لسوء حظ مراد بك ، وقعت قنبلة في المركب الذي كانت فيه ذخائر جيشه ، فاحترقت وتطايرت أجزاؤها في الفضاء . فاندعر المصريون ، وصادف وصول بونايرت بقوة جديدة من الجند ، فأعاد الكرة على جند مراد بك بعد إعادة تنظيم جنده مربعات منتظمة ، وبعد الأخذ والرد مدة انهزم المصريون ، وعاد مراد بك بمن بقي من جنده الى القاهرة ، وتحصن في إمبابه ، ومعه أربعون مدفعاً .

فلما شارف نابليون الأهرام ، وجد أن مراد بك قد استعد هذه المرة للقائه جدياً . فخطب في جنوده خطبة حماسية ، وقال لهم : «أيها الجنود . إعلموا أن خمسين جيلاً من الناس تنظر إليكم من قمة هذه الإهرامات وتراقب حركاتكم ناظرة ما سيؤول إليه أمركم مع هؤلاء المماليك » ثم أعطى إشارة الهجوم . فبادرهم مراد بك باطلاق المدافع ، فتوقف الفرنسيون عن الزحف . وهنا أخطأ مراد بك الخطأ الذي قلب سير الحرب ، إذ خرج من تحصنه ، واستخف بالفرنسيين وقائدهم ، وأعطى أمره بالهجوم ، ولم يكن سلاح جيشه غير السيوف . فهجم أيوب بك قائد الفرسان هجمة الأسود الضارية ، وتبعه باقي السناجق ، فلاقاهم الفرنسيون بنيران بنادقهم فحصدتهم حصداً ، إلا أن أيوب بك لم ينفك عن الهجوم مجرداً سيفاً ، وهو

يهدر بصوت كالرعد « ويل لكم أيها الكفار الملاحين ، لقد ساقكم
كبرياؤكم إلى أرضنا ، فهلا ! اننا سنملا القبور بأجسادكم ، ونجعل
هذا اليوم عبرة وتذكرة لمن يأتي بعدكم . أما نحن فإن مات أحدنا
فانه يذهب شهيداً الى النعيم . ومن بقي حياً فله السعادة الى آخر
أيامه ! » .

استمرت الحرب بجحالا بين الطرفين ، ولكن أنى للسيوف أن
تغلب الرصاص والبارود ؟ تساقط جند الشراكسة وفرسانهم بكثرة
وكان معهم عدد من المصريين ، وقتل أيوب بك الشجاع في هذه
المعركة ، واحتل نابليون إمبابة .

وأما مراد بك فقد تقهقر برجاله جنوباً ، وثبت إبراهيم بك
بجنوده لملاقاة الفرنسيين . ولكنهم غلبوه كما غلبوا زميله من قبل ،
وانهزم إبراهيم بك إلى بلبيس ومنها إلى عكا . ودخل نابليون
القاهرة . كل ذلك ، والباب العالي لا يحرك ساكناً ولا يرسل نجدة ،
ولا يقدم احتجاجاً وكأن هذه الحوادث لا تعنيه في شيء ! . . .

ولكن الانجليز ، وهم أعداء نابليون الحقيقيون والمقصودون من
غزوة مصر ، لم يعجبهم ذلك الانتصار ، فجاؤا إلى الاسكندرية بقوة
بحرية كبيرة ، يقودها الأميرال المشهور نلسن . فقام نلسن بحركة
حرية بارعة كان من شأنها أن أوقعت الأسطول الفرنسى

بين نارين ، فخطم جزءاً منه ، واستولى على البعض الآخر ، ولم يمض على بدء المعركة أكثر من ساعتين !

إلا أن انجلترا فقدت نلسن في هذه المعركة . فقد أصابته رصاصة في رأسه قضت عليه . وكذلك قتل الأميرال برويس قائد الأسطول الفرنسى بأن شطرتة قنبلة انجليزية شطرين .
وفي ظهر اليوم التالى ، لم يكن للأسطول الفرنسى أى أثر في مياه الاسكندرية !

وأما السيد محمد كريم ، الذى أبقاه نابليون حاكماً على الاسكندرية ، فقد أرسل سرا إلى مراد بك كتاباً يقول فيه إنه انما توأماً مع نابليون مؤقتاً ريثما يستطيع أن يقوى عليهم ، وانه مستعد لتسليمه الاسكندرية اذا أراد . فاكشف الفرنسيون نبأ هذا الكتاب ، وبعث نابليون وراء السيد محمد . فلما حضر طلب منه نابليون افتداء نفسه بثلاثمائة ألف فرنك ، وإلا قطع رأسه . فضحك السيد كريم من هذا القول ، وقال لنابليون « إذا قدر لى الموت فلا يدفع الدفع مقدوراً ، وإذا قدرت لى الحياة فأنا حى بغير دفع ! » فأمر نابليون بقطع رأسه ، وطافوا بها فى الأسواق !

ثورة فى القاهرة :

أصدر نابليون أمراً فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ بأن يحمل جميع سكان

مصر شارة الجمهورية الفرنسية ، كما أمر بأن لا تنتظر السلطات في أية شكوى إذا لم يكن مقدماً حاملاً لتلك الشارة . وقد حاول نابليون إلباس هذه الشارة للشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، فثار الشيخ ورمى بها إلى الأرض . فغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال إنه لا يصلح للرئاسة .

وقد أتى الفرنسيون بكثير من المظالم ، كمصادرتهم لكثير من البيوت بحجة الحاجة إليها ، وهدموا أبواب الحارات ، وقطعوا رواتب الأوقاف الخيرية عن الفقراء ، وصادروا الماشية والسلاح ، وفرضوا ضرائب باهظة على أصحاب الحرف والصناعات ، كما أصدر الجنرال (برتيه) أمره بهدم الجامع الأكبر ليلاً . وفرضوا — فوق كل ذلك — ضرائب على نساء البكوات . وقد بلغ من شدة وطأة هذه الضرائب أن عجز بعضهن عن الدفع . فالتجأ أكثرهن إلى السيدة نفيسة زوجة مراد بك ، فدفعت فدية عن أولئك النسوة وبعض الكشاف ما قدره مائة وعشرين ألف ريال فرنساوى (١) . وقال «ريبو» (٢) أن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء الشراكسة بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، وأن ما أخذوه من السيدة نفيسة وحدها بلغ ٤٩٢,٨٥٧ فرنكاً ، وذلك إلى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ م .

(١) الجبرتى — الجزء الثالث .

(٢) التاريخ العلى والحربى للحملة الفرنسية — الجزء الثالث

ويقول « ريبو » أيضا إن السيدة نفيسة زوجة مراد بك اضطرت لدفع حصتها في الغرامة أن تنزل عن حليها وجواهرها ، ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان أهداها لها القنصل «مجالون» باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لرعايتها للتجار الفرنسيين ، فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجاً شريفاً منها .

إزاء كل هذه المظالم ، ثارت القاهرة في وجه نابليون وجنده يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م (١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ) وكان مقر هذه الثورة الأزهر الشريف ، وفيه تألفت لجنة لإدارتها ونشر دعوتها . وكان الثوار يزحفون جموعاً نحو مقر القيادة الفرنسية وهم يصيحون : إلى بو نابت ! إلى بو نابت ! فقابلهم الجنرال «ديبوى» وحاول تهدئتهم ، ولما لم يفلح أمر رجاله بالهجوم ، فأطبق الناس على الجنرال من كل جانب وقتلوه ، فأذكى قتل هذا الجنرال نار الثورة والكفاح في نفوس الشعب الهائج ، وزاد عدد الثائرين بمن انضم إليهم . وهنا حضر نابليون إلى القاهرة ، فاذا هي بركان هائج ، فأخذ من فوره ينظم جنده لمواجهة الحال ، وأمر بضرب المدينة بالمدافع فأخذت آلاف القنابل تنهار على الأزهر والأحياء المجاورة . ثم زحفت قوات كبيرة من الفرنسيين فاحتلت الشوارع الموصلة للأزهر ، وأطاعتوا بنادقهم على الشعب الهائج . فأحدث ذلك أثره ، وطلب الثوار الهدنة . وانتهت الثورة ثاني يوم من بدئها .

وقد ارتكب الفرنسيون كثيراً من الفظائع الجديدة بعد إخماد

الثورة ، ونهبوا البيوت والخوانيت . وقد ر عدد من قتل من المصريين خلال هذين اليومين بثلاثة آلاف شخص .

السيدة نفيسة مراد :

هى زوجة مراد بك أحد زعماء الشرا كسة — وقد بقيت فى القاهرة بعد انهمز زوجها ورجاله إلى الصعيد . وهى شركسية ، وكانت زوجة على بك الكبير . وبعد وفاته تزوجها مراد بك .

كانت نفيسة ذات جمال رائع ، وعلى جانب كبير من الشقيف والتهذيب ، تعلمت العربية قراءة وكتابة ، وأقبلت على الكتب العلمية والأدبية تطالعها بشغف ولذة . فارتقت مداركها ، واتسعت معارفها ، فاكسبت احترام العلماء والأمراء . وكذلك اجتذبت قلوب الشعب بما اشتهرت به من البر والإحسان وحماية الضعفاء ، وكانت تتبرع بإعانات شهرية لكثير من العائلات الفقيرة ، واستمرت تؤدى هذه الإعانات حتى فى أيام محنتها . فكانت أعظم شخصية نسائية ظهرت فى مصر فى ذلك العصر .

وكانت نفيسة ، لحكمتها ونفوذها الواسع ، مقصد الزعماء ورجال الدين أمثال السيد البكرى والشيخ الشرقاوى . وكانوا دائماً يحترمونها رأياً ويقرونها عليه .

وقد حاول نابليون أن يتوود إليها عند ما بدأت الأمور تتعقد فى القاهرة ، إذ كان يرجو أن تساعد فى كبح جماح الشعب المصرى الهائج . وكان قد أشيع فى ذلك الوقت أن مراد بك قد وصل متخفياً إلى

الجيزة وأنه سعد قبة الهرم وأخذ يتبادل الإشارات مع زوجته السيدة نفيسة وهي فوق سطح قصرها المطل على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق (ميدان الأوبرا الآن) . فانتبه نابليون هذه الفرصة ، ودعاها لمقابلته ، متودداً ، مظهرأ كل ضروب الإحترام والإكرام ، ثم قال لها : « إنى لو علمت أنك تريدين الاجتماع بزوجك لما تأخرت فى أن أعلن هدية بينى وبينه لمدة أربع وعشرين ساعة تلتقيان خلالها .. إذا كان فى هذا ما يسرك ويسره » .

ولكن السيدة نفيسة ، المرأة الجبارة ، لم ترد على كلام نابليون بكلمة شكر ، بل أجابته بقولها : « لو فكر زوجى أن يترك رجاله وعسكره ليلتقى بى لمدة أربع وعشرين ساعة ، فلن يكون زوجى » !! ثم انصرفت .

وحدث بعد هذا أن طلب نابليون أن يزورها فى قصرها . وبعد انتهاء الزيارة ، أرسلت إلى «أوجين» ابن جوزفين زوجة نابليون خاتماً ثميناً من الزمرد هدية له بمناسبة زيارة نابليون لها . وبعد وصول الهدية بأيام ، فرض الفرنسيون عليها ضريبة فادحة . فلما احتجت أفهموها أنها ما دامت تملك مثل ذلك الخاتم الثمين فلا شك أنها قادرة على دفع الضريبة . فردت السيدة نفيسة قائلة : « ما كان يجب أن أكرمكم من مالى ، بل أدعكم تسرقونه ! » .

وبعد جلاء الفرنسيين — كما سيحىء — استهدفت السيدة نفيسة

لكثير من مظالم الولاية الأتراك . فقد ذكر الجبرقى ما وقع من خورشيد باشا من إساءة معاملتها ، فقال ما خلاصته أن الباشا أمر بإحضارها إلى القلعة واتهمها بتحريض الجند على الثورة ، وأنها تدفع لهم رواتبهم . فأنكرت نفيسة هذه التهمة ، ووبخت الباشا توبيخاً شديداً قائلة : « طول عمرى عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم . والسultan ورجال الدولة وحریمهم يعرفوننى أكثر من معرفتى بك . ولقد مرت بنا دولة الفرنسيين فما رأيت منهم إلا التكریم . وكذلك محمد باشا خسرو كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه إلا المعروف . وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم . » وفى هذه الأثناء حضر بعض العلماء ومنهم الشيخ الشرقاوى واحتجوا لدى الباشا على استجواب هذه السيدة الفاضلة ، فاضطر الباشا إلى إخلاء سبيلها معذراً .

وقد عاشت السيدة نفيسة حتى عصر محمد على (ومات زوجها قبلها) إلى أن توفيت سنة ١٢٣١هـ (١٨١٦ م) بعد أن فقدت مالها ، وعزها ، ولكنها لم تفقد أبداً كرامتها وحب الناس لها .

قال عنها الجبرقى : « كانت شهيرة الذكر بالخير ، ولها على الفقراء بر وإحسان . ولها من المآثر الخان الجديد والصهرىج داخل باب زويلة . ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الامام الشافعى » .

وقال عنها « فيليكس مانجن » المؤرخ المعروف :

« لم تكن جميلة جداً ، ولكنها كانت ذكية غاية الذكاء . ولم

يكن في استطاعتك أن ترى عينيها ولا شفتيها ، لأنها كانت تجبرك على أن تطأ طيما رأسك احتراماً لها .

سير الحوادث :

في ليلة السبت ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢١٤ هـ وصل القاهرة هيجان برسالة من السلطان العثماني، ومعه رسالة أخرى من أحمد باشا الجزار والى عكا (وقد ورد ذكره في ترجمة على بك الكبير) موقع عليها من ابراهيم بك، وبكير باشا (والى مصر السابق) ، وفي الرسالتين تحريض على العصيان ، وقتال الفرنسيين ، وتحذير للمصريين من تصديق ما يشيعه الفرنسيون عن حبهم للإسلام والمسلمين . وقد وزع من هاتين الرسالتين عدد على الأهالي ، ووقعت نسخ منه في أيدي نابليون . فأصدر منشوراً مضاداً وعلقه على الجدران قال فيه :

« نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين وياسكان الأرياف من العربان والفلاحين أن ابراهيم بك ومراد بك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان . وسبب ذلك أنه حصل لهم الغم الشديد والسكرب الزائد فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنسي ساوى لأجل خراب البلاد . ونخبركم أن الطائفة الفرنسية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية يحبون المسلمين ومملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب مولانا السلطان قائمون بنصرته . فننصحكم يا أهل الأقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن

ولا تعارضوا العسكر الفرنسي سوى بشيء من أنواع الأذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية .
حملة بونابرت على سوريا :

ويظهر أن نابليون قرر بعد هذا الحادث احتلال سوريا وإزالة كل نفوذ فيها للعثمانيين . ولعله أراد عقاب الجزائر والى عكا على منشوره . فأعد جنوده وعتاده ، وفي ٢٥ شعبان (أول فبراير سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال كلايبر والجنرال رينر في مقدمة الحملة نحو العريش ، وفي ٥ رمضان (أو ١٠ فبراير) سار بونابرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزائر ، وقد عسكر خارج المدينة . فهاجمه نابليون بغتة وشتت جيشه وقتل قاسم بك في المعركة . إلا أن حامية المدينة أبت التسليم بادية الأمر ، ثم أذعنت لتهديد نابليون ، فسلمت له المدينة يوم ١٤ رمضان سنة ١٢١٣ هـ . وفي ١٧ منه بلغ الفرنسيون مدينة يافا ، فسلمت له الحامية المؤلفة من أربعة آلاف رجل أكثرهم من الأرنؤوط بعد أن منحهم نابليون الأمان ، ثم عاد فأمر بإعدامهم جميعاً . ولما بلغت جيوش نابليون أسوار مدينة عكا ، كانت أنباء هذه المنجزة قد بلغت أحمد باشا الجزائر الوالى ، فصمم على الدفاع . وانفصلت قوة فرنسية متجهة نحو القدس لاحتلالها ، فلم تفلح .

وفي يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩ م ابتدأ هجوم نابليون على أسوار عكا ، فامتنعت عليه . فأعاد الهجوم مرة بعد مرة ، وفي كل مرة

يتحطم الهجوم ويفشل . فلما كان اليوم الخمسون من بدى الحصار أمر نابليون بهجوم نهائى على المدينة . فكانت نتيجة هذا الهجوم مثل سابقه ، وقتل خلاله كثير من الفرنسيين وبعض قوادهم المشهورين مثل الجنرال كافارلى والجنرال بون . وهنما أصاب اليأس نفس نابليون ، فأمر بترك عكا والعودة إلى مصر بكامل جيشه ومعهم الجرحى . فقاموا أثناء الطريق عذاباً مرّاً من العطش وتفشى فيهم الوباء . وفى ٢ ذى الحجة (٢ يونيو) وصل الجيش المهزوم العريش ، فلم يجدوا فيها ماء . وكان الماء الذى يشربونه ملاناً علقاً يمتص الدم ، فكان يلتصق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً أليماً .

وهكذا انتقمت عكا من نابليون ذلك الانتقام المريع وأذلت . وشهد ابراهيم بك هذا الانتصار فى عكا ، واشترك فيه ، فأزاح عن نفسه بعض ذل الانكسار فى موقعة القاهرة ، وبدأ يجمع رجاله للزحف على مصر من جديد !

وأما مراد بك ، فإنه اغتتم فرصة خروج نابليون من مصر على رأس الحملة السورية ، فجمع بعض رجاله ونظم صفوفهم وابتدأ الزحف لملاقاة ابراهيم بك زميله وشريكه . فلما وصل نابليون القاهرة وعلم بهذه الأنباء ، كان ابراهيم قد عسكر بجندته عند سفح جبل المقطم . فأرسل إليه نابليون فرقة من الجند اشتبكت مع قوات ابراهيم بك واستطاعت تشتيتها .

الحملة العثمانية الانجليزية :

وفي ١١ يوليو سنة ١٧٩٩ م وصلت حملة عثمانية إلى أبي قير ، بعد أن اتضحت نيات الفرنسيين الصريحة للباب العالي . كما إن الحكومة الانجليزية حرصت السلطان العثماني على مقاومة الغزو الفرنسي وممنته بالمساعدة الحربية . فانزعج نابليون لهذه الاخبار . وأدرك أن حاله بالسيطرة على مصر والعالم لن يتحقق . . .

أنزل العثمانيون قواتهم ، وتبعهم الانجليز ، وقامت بينهم وبين الفرنسيين معارك عديدة أهمها معركة أبي قير ورشيد . وقد انتهت هذه الحروب باستسلام نابليون ، ووقعت معاهدة ٢٥ يونيو سنة ١٨٠١ م .

نهاية الحملة الفرنسية ونماذجها :

هكذا انتهت الحملة الفرنسية على مصر ، فعادت مرة أخرى ولاية عثمانية .

وفي هذه الأثناء توفي مراد بك بالطاعون ، وظهر زعيان جديدان للشراكية هما عثمان بك البرديسي ، ومحمد بك الألفي .

وقد قضت الحملة الفرنسية على نفوذ بكوات الشراكية ، فقللت من عددهم إذ قتل كثير منهم في المعارك التي نشبت مع القوات الفرنسية . وإلى هؤلاء البكوات يعود الفضل في مقاومة الفرنسيين وقيادة الحملات الحربية ضدهم . كما يعود إليهم الفضل في نشر الدعوة ضدهم في سوريا ولبنان ، فكان لذلك أثره في فشل الحملة السورية .

الفصل السابع

نهاية الشراكسة — مذبحة القلعة

من انسحاب الفرنسيين إلى ولاية محمد علي :

انسحبت الجيوش الانجليزية من مصر ، وتركتها للعثمانيين .
وتعين والياً عليها يوسف باشا الصدر الأعظم ، يساعده القائد العثماني
حسين باشا قبطان الأسطول (وقد مر ذكره في عصر علي بك
الأكبر) فعين يوسف باشا ابراهيم بك من جديد شيخاً للبلد . ولكن
حسن باشا (وكان يكره الشراكسة كما تقدم) استصدر أمراً من
الباب العالي بالقبض على ابراهيم بك وزعماء البكوات (وذلك في
٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠١) فقبض عليهم ، وأحرق بعض بيوتهم في
الجزيرة ، وقتل منهم عدداً آخر . ولم ينقذهم من الهلاك التام إلا تدخل
الانجليز ، فأطلق سراح المعتقلين ، واستطاع ابراهيم بك الوصول
إلى مصر العليا (الصعيد) حيث احتفى مع بعض رجاله .

وفي ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ تولى خسرو باشا ولاية
مصر ، فناهض الشراكسة من جديد ، وأرسل جيشاً لمحاربتهم ، فانهزم
جيشه عند بنى سويف . وتحصن الشراكسة عند دمنهور ، واتصلوا
ببعض الانجليز الذين كانوا في الاسكندرية . وفي معركة دمنهور

تمكن البرديسي من قهر الجنود العثمانية ، فتم له بذلك أول نصر هام
وذلك عام ١٨٠٢ م .

وفي سنة ١٨٠٣ غادر من بقي من الإنجليز مدينة الاسكندرية
نهائياً ، وصحبهم زعيم بكوات اشراكسة محمد بك الألفي إلى إنجلترا
حيث أكرموه وقدموا له الهدايا الفاخرة ، ووعدوه بالتوسط لدى
الباب العالي بأن يعود البكوات إلى تسلم مقاليد الحكم كما كان الحال
قبل الحملة الفرنسية ، فبنتنى بذلك اضطهاد ولاية الترك للشراكسة في
مصر ، بعد أن ظهرت سياسة بعضهم العدائية واخوة نحوهم منذ عودتهم
إلى مصر بعد الحملة الفرنسية .

وعاد خسرو — بعد خروج الانجليز — وجهز حملة جديدة لقتال
البكوات واستخلاص الصعيد من أيديهم ، فأبى الجند السير حتى
يعطيهم الباشا رواتبهم المتأخرة ، ولما لم يجابوا إلى طلبهم ثاروا ،
فاضطروا خسرو باشا للفرار إلى دمياط ، وعين طاهر باشا قائد
الجند والياً مؤقتاً حتى يصدر أمر الاستئانة بتوليته . إلا أن
الانكشارية — وكانوا في القاهرة مع قائدهم أحمد باشا والى المدينة
الذى كان في طريقه إلى بلاد العرب — ثاروا هم أيضاً مطالبين
برواتبهم ، وقامت الحرب بينهم وبين الأرنؤوط ، فدخل اثنان من
الانكشارية على طاهر باشا وقتلاه وتولى أحمد باشا الحكم مكانه .
محمد علي :

بعد مقتل طاهر باشا — قائد الأرنؤوط — تولى القيادة محمد

على . وكان فيما مضى قائد فرقة عددها ٣٠٠ — وكان محمد على ضمن القوة العثمانية التي جاءت مصر مع القبطان حسين باشا بالاشتراك مع الحملة الانجليزية ، وركب في مصر إلى رتبة « بكباشى » . وبعد مقتل رئيسه طاهر باشا دعا محمد على زعيمى البكوات عثمان بك البرديسى و ابراهيم بك ، واتفق معهما على مناهضة احمد باشا واخراجه من الولاية . فكتب ابراهيم بك إلى احمد باشا يطلب منه الخروج من القاهرة حالا وإذا بقي فيها إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم أهدر دمه . فترك احمد باشا المدينة مرغماً ، وأصبح الامر في يد ابراهيم بك والبرديسى ظاهراً ، إذ كان محمد على بشير عليهما في كل خطواتهما .

وبعد هرب احمد باشا ، قبض البرديسى على خسرو باشا في طنطا واعتقله في القلعة . وبعد هذا الانتصار ، أخذ محمد على والبرديسى يتجهبان إلى الناس ، ففتحوا مخازن الغلال ، ووزعوا الصدقات على الفقراء . ثم عين الباب العالى على باشا الجزائرى والياً على مصر خلفاً لمحمد خسرو المعتقل . واسكنه لم يلبث طويلاً حتى قتل .

وتلا ذلك عودة الأتقى من انجلترا . نفى « محمد على » عاقبة اتفاهه مع الحكومة الانجليزية ، وأثار عليه زميله البرديسى . ومع أن مصلحة البكوات كانت تقضى عليهم إذ ذاك بالاتحاد ، إلا أن البرديسى — لوثوقة التام بمحمد على — عمل على عرقلة مساعى

الآلاف وشنت رجاله ، فلم يسعه الا الاختفاء في الصعيد .

وبعد ذلك قامت ضجة الأرناؤوط — جنود محمد علي —
مطالبين برواتبهم . فأحاطهم « محمد علي » على البرديسي (اذ كان تاركاً كل
شيء في يده ظاهراً) فاضطر البرديسي الى فرض ضرائب جديدة .
فدعر الناس ، واشتدت ثورة الجند . عند ذلك خشى محمد علي أن
يكيد له البكوات كما يكيد لهم ، فكشف النقاب عن وجهه ، وأرسل
في مارس سنة ١٨٠٤ م جنوده لحصار البرديسي و ابراهيم بك في
منزلهما . فما طلع الصبح الا والاثنان — ومعهما بعض رجالهما —
قد رحلوا عن القاهرة ، ووجهتهم الصعيد . وبذلك خلا الجو في
القاهرة لمحمد علي .

إلا أن محمد علي الحذر رأى أن الفرصة ما زالت غير مواتية
لتحقيق مطامحه النهائية ، فعمد إلى فك أسر خسرو باشا ، مظهراً
للشعب المصري والسلطان العثماني عدم تأمره مع البكوات على الباب
العالى . إلا أن حيلة محمد علي لم تنجح لأن أقرباء طاهر باشا ثاروا
على خسرو وأنزلوه في قارب إلى رشيد ومنها الى الآستانة . فاستعمل
محمد علي الدهاء مرة أخرى ، وأشار بتعيين والى الاسكندرية —
خورشيد باشا — والياً على مصر . فأيد الباب العالى هذا التعيين ،
وتعين محمد علي قائماً له (أى نائباً) وذلك في ذى القعدة سنة
١٢١٨ هـ (مارس ١٨٠٤ م) .

وفي سنة ١٨٠٩ عرض محمد علي الصلح على ابراهيم بك —

وكان قد جمع رجاله في الصعيد وكون منهم قوة جديدة — فرضه
ابراهيم بك محتجاً بكثرة ما سفك بينهما من دماء . (١) فقرر محمد على
محاربه ، وسار إليه في الصعيد ، واشتبك مع الشراكسة في مواقع
متعددة . وفي أثناء ذلك ، بلغه أن خورشيد باشا قد استقدم جنداً
من المغاربة لتوطيد سلطانه ، وكان قد بدأ يوجس خيفة من
الارناؤوط ونفوذ محمد على ، فأسرع محمد على بالعودة إلى القاهرة
بحجة طلب العلف لخيله . وهناك أنبأه خورشيد باشا نبأ تعيينه
والياً لجدة ، وألبسه خلعة الولاية وشارات الحكم . ولما خرج يريد
الركوب ثار العساكر وطالبوه بالعودة ، فقال لهم محمد على : هذا
هو الباشا عندكم فطالبوه . وسار قاصداً بيته بالأزبكية ، نائراً
الذهب على الناس طول الطريق .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، حضر العلماء برئاسة السيد عمر مكرم
والشيخ عبد الله الشرقاوى الى منزل محمد على ، وشكوا من سوء
تصرف الجنود التي استقدمها الوالى ، وطلبوا عزله . فسألهم محمد
على عن يريدون توليته بدله . فقالوا « لانرضى بك بديلاً وتكون
والياً علينا بشروطنا » . وتقدم السيد عمر والشيخ الشرقاوى
وألبساه الكرك والقفطان — وهما شارات الحكم — ثم سار
الجميع نحو القلعة ، ومعهم الجنود ، فحاصروا القلعة ، وطلبوا من
خورشيد النزول ، فأبى قائلاً أنه معين من قبل السلطان فلا ينزل عن

كرسيه بأمر الفلاحين . واستمر في القلعة يحاصره الأرناؤوط
والمصريون الذين كانوا في خدمة محمد علي ، حتى حضر مرسوم
السلطان بتولية محمد علي حكم مصر في يولية سنة ١٨٠٥ م (ربيع
آخر سنة ١٢٢٠ هـ) فلم يسع خورشيد باشا إلا الإذعان .

ولاية محمد علي باشا:

وهكذا تمكن محمد علي باشا من الوصول إلى غرضه الأساسي ،
إلا أن البسكوات لم يعجبهم هذا التعيين . وكان الآلاني في تلك الأثناء
مقيماً في الصعيد ، فلما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً
خلعه ، وتخابر في ذلك مع خورشيد باشا ، كما اتصل بالحكومة
الإنجليزية عن طريق ممثلها في مصر . وقد تمكنت هذه الحكومة
من إقناع الباب العالي بإرسال عفو شامل عن البسكوات وجميع
رجالهم . وصل الآلاني بك في غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ .
وفي ١٤ منه وصل أسطول عثمانى وعلى ظهره موسى باشا مرسل من
قبل السلطان والياً على مصر ومعه فرقة جديدة من الجند وأمرأ
سلطانياً إلى محمد علي بنقله إلى ولاية سلا نيك ، وإعادة الأمراء
المصريين (البسكوات الشراكسة) إلى مناصبهم في الإمارات والأحكام .
كان هذا الأمر الجديد مفاجأة لمحمد علي باشا ، فتظاهر بالقبول ،
ولكنه استعان بنفس القوة التي نصبت في الولاية . فحرك المشايخ
والعلماء وجه لهم يكتبون التماساً للسلطان وللقبطان الأسطول يطلبون

فيه بقاءه ، ويبدون تخوفهم من البسكوات فيما لو عادوا لحكم البلاد . وكان لسفير فرنسا رغبة شديدة في بقاء محمد على باشا لناوأة السياسة الانجليزية ، فسعى جهده مع قبطان الأسطول لإقناعه بإبقاء محمد على ، واتفق أن يكون القبطان هذه المرة أيضا حسين باشا السابق ذكره ، فرأى أن يؤيد طلب بقاء محمد على باشا لدى السلطان ، فأرسل محمد على باشا الهدايا إلى السلطان مع ابنه ابراهيم وكتب خطاباً يتعهد فيه بكل ماطلبه الباب العالي من البسكوات ، فيدفع ٤٠٠ كيس في كل كيس خمسة جنيهات مجدية كل سنة زيادة على قيامه بالحج وتفقاته . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ هـ بارحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها موسى باشا و ابراهيم بن محمد على باشا . وفي أواخر شعبان (نوفمبر سنة ١٨٠٦ م) وردت الأوامر من الأستانة بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر ، مع الإيعاز اليه بأن لا يتعرض للشراكة بعد ذلك لصدور العزم عنهم قبلاً (١) .

وفي الشهر التالي توفي عثمان بك البرديسى . وفي ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد بك الألفى ، فتولى زعامة الشراكة مكانهما شاهين بك .

حملة فرينز (سنة ١٨٠٧ م) :

اعتبرت الحكومة الانجليزية تثبيت «محمد على» على ولاية مصر إخلالا بالاتفاق ، وعملا عداثيا موجهها اليها . فأرسلت في شهر مارس

سنة ١٨٠٧ م (محرم سنة ١٢٢٢ هـ) حملة قوامها ٧٠٠٠ جندي بقيادة فريزر (FRASER) غرضها معاونة البكوات على استرجاع نفوذهم والقضاء على ولاية محمد علي باشا ومنع الفرنسيين من بسط نفوذهم في البلاد^(١). وقد وصلت هذه الحملة بعد وفاة الألفي. وكان المنتظر أن يساعد البكوات فريزر، إلا أنهم آثروا المصلحة القومية وساعدوا محمد علي في مقاومته للحملة الانجليزية بعد أن فاوضهم وأجابه إلى كل شروطهم. فتمكن محمد علي من قهر الحملة الانجليزية، واستجبت جنودها نهائياً من الأراضي المصرية في سبتمبر سنة ١٨٠٧ م. ولو كان الألفي باقياً لتفاقم الخطب ولتعذر على محمد علي مواجهة الموقف.

وبعد انسحاب القوات الانجليزية زال أكبر خطر كان يهدد محمد علي باشا، فاستقر له الأمر في مصر. وتم الصلح بينه وبين البكوات بقدم زعيمهم شاهين بك إلى مصر بالهدايا الثمينة، فأكرمه محمد علي وبني له قصرًا نفيساً لسكنه في الجيزة. وأما ابراهيم بك فإنه لم يثق بنيات محمد علي باشا، فأثر البقاء في الصعيد مع بعض رجاله. مذبحه القلعة:

وفي سنة ١٨٠٩ وصل الأمر إلى محمد علي باشا باحتلال الحجاز ومحاربة الوهابيين، فبذل محمد علي جهده في تعبئة الجيش وتجهيز المؤن والذخائر، وعقد لواءه لابنه طوسون باشا. وقد خشي أن يعتم

(١) المعروف أن السياسة الفرنسية كانت تؤيد محمد علي باشا. وكان مثل فرنسا بالقاهرة يشير عليه أحياناً بما يفعله. راجع كتاب:

البكوات هذه الفرصة ، فيعودون للثورة عليه ، فقرر أن يغدر بهم ،
ودبر لهذا الغرض مكيده القلعة المشهورة .

وقد وصف «الجبرتي» مذبحه القلعة بشيء من التفصيل في تاريخه .
والجبرتي — فوق أنه مؤرخ له مقامه — عاصر المذبحة ودور
أنبيائها . ولذلك رأينا أن ننقل وصفه هنا كما رواه ، مع شيء من
التهديب في بعض الألفاظ . قال : (١)

وفيه قلد الباشا ابنه طوسون باشا صارى العسكر المتوجه إلى
الحجاز . وأخرجوا جيشهم إلى ناحية قبة العزب ونصبوا الخيام .
وأظهر الباشا الاجتهاد الزائد والعجلة وعدم التواني ، ونوه بتفسير
عساكره ل ناحية الشام لتليك يوسف باشا عمله ، وأن صارى عسكرهم
شاهين بك الأتقي ونحو ذلك من الإيهامات . وطلب من المنجمين
أن يختاروا وقتاً صالحاً لإلباس ابنه خنعة السفر ، فاختاروا له
الساعة الرابعة من يوم الجمعة . فلما كان يوم الخميس طاف آلاى
جاويش بالأسواق وحوله قاجية ينادون بقولهم (يارن ألاى)
ويكررون ذلك فى أخطاط المدينة . وطافوا على كبار العسكر
والأمراء المصرية الألفية وغيرهم يطلبونهم للحضور فى باكر النهار
إلى القلعة ليركب الجميع بتحملاتهم وزينتهم أمام الموكب . فلما أصبح
يوم الجمعة ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة وطلع المصرية (أى أمراء
الشراكسة) بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم . فدخل الأمراء عند الباشا
وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة وشربوا القهوة وتضاحك معهم .

(١) تاريخ الجبرتي — الجزء الرابع — ص ١٢٧ وما بعدها

ثم سار الموكب على الوضع الذي رتبوه . فسارت طائفة الدلاة
 (المغاربة) وأميرهم المسمى « أزون على » ، ومن خلفهم الوالى
 والمحاسب والأغا والوجاقلية والألدشات المصرية ومن تزيابهم ،
 ومن خلفهم طوائف العسكر والبيكباشيات وأرباب المناصب ،
 وأبراهيم أغا أغات الباب وسليمان بك البواب يذهب ويحجى ويرتب
 الموكب . فلما انجر الموكب وفرغ طائفة الدلاة ومن خلفهم الوجاقلية
 والألدشات المصرية وانفصلوا من باب العزب ، عند ذلك أمر
 صالح قوج بغلق الباب ، وعرف طائفته بالمراد ، فالتفتوا ضاربين
 بالمصرية وقد انحصروا بأجمعهم فى المضيق المنحدر . فلما حصل الضرب
 أراد الأمراء الرجوع القهقرى فلا يتمكنوا من ذلك لا تنظام الخيول فى
 مضيق النقر . وعلم العساكر الواقفون بالأعلى المراد ، فأخذوا
 هم أيضاً بالضرب . فلما نظروا ما حل بهم أسقط فى أيديهم ، وارتبكوا
 وتحيروا فى أمرهم ، ووقع منهم أشخاص كثيرون . فزلوا عن الخيل
 واقترجم شاهين بك وسليمان بك البواب وآخرون فى عدة من
 بماليتهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية ،
 ونزعوا ما كان عليهم من القراوى والثياب الثقيلة ولم ينالوا سائرين
 وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة
 الأعمدة وقد سقط أكثرهم . وأصيب شاهين بك ووقع إلى الأرض ،
 فمطحوا رأسه وأسرعوا به إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش .
 وكان الباشا عندما ساروا بالموكب ، ركب من ديوان السراية وذهب

إلى بيت الحريم وهو بيت اسماعيل أفندي الضربخانة . وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح ، وصعد إلى حائط البرج الكبير ، فتابعوه بالضرب حتى سقط وقطع رأسه هو أيضاً . وهرب كثيرون إلى بيت طوسون باشا بقصد الالتجاء إليه فقتلوهم وأسرف العسكر في قتل الأمراء المصريين وسلب ما عليهم من الثياب ، ولم يرحموا أحداً ، وأظهروا كامن حتردهم ، فلم يرقوا لصارخ ولا شك ولا مستغيث ، وتبعوا الهاربين في نواحي القلعة وزواياها وقبضوا على كل من أمسك حيا أو لم يمت من الرصاص أو كان متخلفاً عن عن الموكب أو جالساً مع الكتيبة كالأحمد بك الكيلارجي ويحي بك الألفي وعلى كاشف الكبير ، فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن تحت مجلس كتيبة بك ، ثم أحضروا « المشاعلي » لرمى أعناقهم في حوش الديوان واحداً بعد الآخر ، من ضحوة النهار إلى أن مضت حصنة من الليل ، حتى امتلأ الحوش بالقتلى . وكانوا كلما مات أحد المشاهير المعروفين قطعوا رأسه وسحبوا جثته إلى باقي الجثث ، حتى أنهم ربطوا شاهين بك من رجليه ويديه وسحبوه على الأرض مثل الحمار الميت إلى حوش الديوان . هذا ما حصل بالقلعة . أما أسفل المدينة ، فإنه عند ما أغلق باب القلعة وسمع من الرميعة صوت الرصاص دب الخوف في نفوس الناس وهرب من كان واقفاً بالرميلة . وعند ما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمراء انبثوا كالجراد إلى بيوت الأمراء ومن جاورهم

طالبين النهب والغنيمة ، فوجوها بغتة ونهبوها تنهاذريعا ، وهتكوا
الحرائر والحريم ، وسحبوا النساء والجوارى والخوندات والستات
وسلبوا ما عليهن من الحلى والجواهر والثياب ، وأظهروا الحكام
في نفوسهم ، ولم يجدوا مانعا ولا رادعا . وبعضهم قبض على يد
امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعه بسرعة فقطع يدا المرأة .
وحل بالناس في بقية ذلك اليوم من الفرغ والخوف وتوقع المسكروه
مالا يوصف . ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا
من الأمراء المقصودين . وأصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض
على المتوارين والمختفين مستمر . وركب الباشا في الضحوة ونزل من
القلعة وحوله أمراؤه الكبار مشاة ، وأمامه وخلفه عدة الفرخ ،
والسرور بقتل الأمراء المصريين ونهبهم والظفر بهم ، طافح من
وجوههم . فأوقف الباشا أعمال النهب وقاصص اثنين ممن ضبطوا
في نهب أحد بيوت المغاربة . ثم عرج على بيت الشيخ الشرقاوى
وكان قد التجأ إليه شخصان من الكشاف ، فكلمه بشأنهما وترجى
عنده في أعناقهما ، فمنحهما الباشا الأمان . ثم ركب الباشا إلى القلعة
وأرسل ورقة إلى الشيخ يطلبهما . فقال لهما الشيخ : إن الباشا أرسل
هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما إليه . فقالا : وما يفعل بنا ؟ إنه لاشك
يقتلنا ! فقال الشيخ : لا يصح ذلك ولا يكون ، كيف يأخذكم من
بيتى ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتى ؟ فذهبا مع الرسول . وعندما
وصلا إلى الخوش وجدوه مملوء بالقتلى ، وضرب الرقاب مازال

واقع بالمحبوسين . فقبضوا عليهما ، وأدرجا في ضمنهم !... وقد نزل طوسون باشا وقت نزول أبيه وأوقف النهب . أما القبض على الأجناد والمماليك فمستمر ، وكذلك كل من كان يشبههم في الملبس والزي . وأكثر من كان يقبض عليهم كانوا عساكر حسن باشا الأرنؤدى ، فكانوا يكبسون عليهم في الدور والأماكن ويقبضون عليهم وينهبون بيوتهم . وأما كتمخدا بك فانه لم يرحم أحداً . وكلما أحضروا له واحداً من الأمراء أو رجالهم ولو هرباً أو فقيراً أمر بضرب عنقه . وأرسل أوراقاً إلى كشاف النواحي بقتل كل من وجدوه بالقرى والبلاد من البسكوات والمماليك . فوردت الرؤوس في ثانی يوم ، فكانوا يضعونها بالرميلة وعلى مصطبة السيل المواجهة لباب زويلة . والباشا كان يعلم شدة كراهية كتمخدا للمماليك فقوض له الأمر فيهم . فقتل في هذا الحادث أكثر من ألف إنسان من أمراء وأجناد وكشاف ومماليك . ثم صاروا يحملون جثثهم على الأخشاب ويلقونهم عند المغسل بالرميلة ، ثم يرفعونهم ويلقونهم في حفر في الأرض بعضهم فوق بعض . وسلخوا عدة رؤوس من رؤوس العظام ، وألقوا جماجمهم المسلوخة على الجثث في تلك الحفر ، فكانت هذه الأمور من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلاً .

ولم ينج من الألفية إلا أحمد بك زوج عديلة هاتم بنت إبراهيم بك الكبير ، فإنه كان غائباً بناحية « بوش » وأمين بك الذي تمكن من الفرار من القلعة بجواده وهرب إلى الشام ، وعمر بك الأتني إذ

كان مسافراً في ذلك اليوم إلى الفيوم ، ولكنه قتل هناك فيما بعد
وبعثوا برأسه مع ١٥ رأساً أخرى .

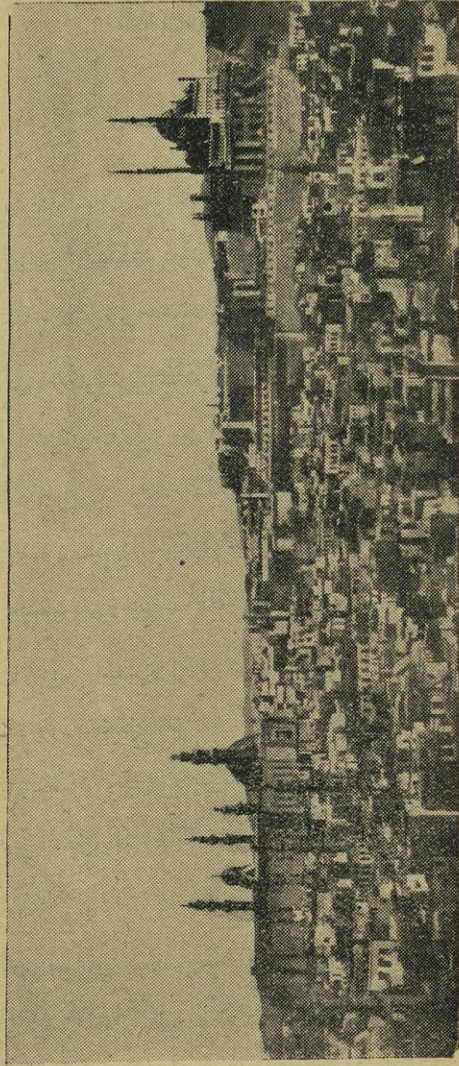
وأما من قتل في ذلك اليوم من له ذكر وبلغني خبره فهم :
شاهين بك كبير الألفية ، ويحيى بك ، ونعمان بك ، وحسين بك
الصغير ، ومصطفى بك الصغير ، ومراد بك ، وعلى بك وهؤلاء من
الألفية . ومن غيرهم : أحمد بك الكيلارجي ، ويوسف بك
أبودياب ، وحسن بك صالح ، ومرزوق بك بن إبراهيم بك
الكبير ، وسليمان بك البواب ، واحمد بك تابعه ، ورشوان بك ،
وابراهيم بك تابعه ، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير ، وسليم بك
الدرججي ، ورستم بك الشرقاوي ، ومصطفى بك أيوب ، ومصطفى
بك تابع عثمان بك حسن ، وعثمان بك إبراهيم ، وذو الفقار تابع
جوجر بك . ومن الأمراء الكشاف : كاشف الخازندار ، وعثمان
كاشف الحبشي ، ويحيى كاشف ، ومرزوق كاشف ، وعبد العزيز
كاشف ، ورشوان كاشف ، وسليم كاشف ططر ، وفريد كاشف
وجعفر كاشف ، وعثمان كاشف ، ومحمد كاشف أبو قطية ، وأحمد
كاشف الفلاح ، وأحمد كاشف ، ومحمد أغا ، و خليل كاشف ، وعلى
كاشف قيطاس ، وموسى كاشف ، وغيرهم من لم تبلغني أسماءهم وهم
كثيرون . ختم الله للجميع بالخير ، فانه بلغني من عاينهم بالسجن
وأثناء القتل أنهم كانوا يقرأون القرآن وينطقون بالشهادتين
والاستغفار ، وبعضهم طلب ماء وتوضى وصلى ركعتين قبل أن
يرمى عنقه ، ومن لم يجد ماء تيمم وصلى .

وفي ثامنہ نودی علی نساء القتلی بالآمان ، وأن یعدن إلى بیوتهن .
 فعد البعض ، وأثر البعض الآخر الإختفاء - خصوصاً اللواتی نہت
 منازلهن ولم یبق لهن شیء . وأنعم الباشا علی خواصه بالبیوت بمن
 فیها ، فسكنوهما وألبسوا النساء الخواتم (؟) وجددوا الفرش . وأنعم
 ببیت شاهین بك علی حسین أغا أحد أقربائه .

وأما أحمد بك الألفی ، فوصله النذیر فانتقل من قرية بوش إلى
 الجنوب ، وأبلغ إخوانه هناك ما حدث فی القاهرة والأقالیم . وعلم
 ابراهیم بموت ولده علی هذه الصوره . فأقاموا العزاء علی إخوانهم
 ولبسوا علیهم السواد . « . ١٠٠ هـ .

وقد طارد بعد ذلك ابراهیم باشا - بن محمد علی باشا - هؤلاء
 فی الجنوب ، فانتقلوا إلى بلدة دنقلة جنوبی السودان ، ومن یتهم
 ابراهیم بك ، وهناك أخذوا یرعون الدخن ویقتاتون به ، إلى أن
 مات ابراهیم بك فی شهر ربیع الأول سنة ١٢٣١ هـ . وفي العام
 التالی استطاعت زوجته أن تحصل علی إذن من محمد علی باشا بإحضار
 رفات زوجها لدقنه بالقاهرة . فوصل جثمانه فی رمضان سنة ١٢٣٢ هـ .

وقد تم بحمد الله تعالى ما ذكرناه من أخبار
 هذه الأسرة العظيمة ، والله أعلم بالصواب .
 وأما ما ذكرناه من أخبار هذه الأسرة العظيمة ،
 فلهذا ذكرناه في هذا الموضع ، والله أعلم بالصواب .
 وأما ما ذكرناه من أخبار هذه الأسرة العظيمة ،
 فلهذا ذكرناه في هذا الموضع ، والله أعلم بالصواب .



منظر عام لمدينة القاهرة. وترى القبة إلى أقصى اليمين .

الهصل الثامن

الحرايت العراقية وما تخلفها

بعد مذبحه القلعة ، لم تقم للشرا كسة في مصر قائمة . فقد قتل أكثرهم ، ووزع محمد علي باشا نساء القتلى على رجاله ، ومنهم بعض المصريين الذين كانوا في خدمته . ومن بقي حياً اختفى حرصاً على حياته . وفي عهد الخديوى إسماعيل وبعده جاء مصر عدد قليل من الشرا كسة الذين فروا من وجه الروس (١٨٦٩ — ١٨٧٥ م) . وكان إسماعيل يرحب بالمهاجرين من جميع الأجناس لتنشيط حركة العمران في مصر ، كما إنه كان شديد الرغبة في تحسين المدن المصرية . فسكنوا مصر وانخرط بعضهم في صفوف الجيش .

وكان الجيش المصرى ، في عهد الخديوى توفيق ، يضم عدداً من الشرا كسة . وقد استطاع هؤلاء ، بساكنهم وغريزتهم العسكرية ، بلوغ المراتب الرفيعة في الجيش ، مما أثار عليهم حفيظة إخوانهم المصريين . وكان البعض التمليل من هؤلاء من نسل البكوات الذين قتل أبائهم في مذبحه القلعة .

وفي عهد وزارة رياض باشا ، كان وزير الحربية ضابط شر كسى اسمه عثمان رفقي باشا ، اتهم بأنه كان متعصباً لأبناء جنسه ، فاجتمع بعض الضباط المصريين ومن بينهم احمد عرابي باشا ، واتفقوا على

مناوأة الشراكسة . فرروا شكوى رفعوها إلى مجلس الوزراء بالنيابة عن جميع الضباط وفيها يطلبون عزل عثمان رفقي وزير الحربية . وكانت اللهجة التي كتبت بها الشكوى شديدة . فحاول رياض باشا إقناعهم بسحبها واعدأ بأن يعمل على إنصافهم فلم يفلح . ولما عرض الأمر على الخديوى غضب غضباً شديداً لتدخل الجيش في شؤون الحكومة التنفيذية ، وقرر محاكمة مقدمى الشكوى .

إلا أنه بعد اعتقال مقدمى الشكوى — وكان عددهم ثلاثة من بينهم احمد عرابى باشا — فى ثكنة قصر النيل ، هجم ألى مصرى بقيادة الضابط محمد عبيد على الثكنات وفك أسر الضباط المحبوزين وقصدوا جميعاً فى مظاهرة إلى قصر عابدين طالبين عزل عثمان رفقي ، وأصروا على البقاء حتى يحاب طلبهم .

فلم يسمع الخديوى إلا القبول ، وصدر الأمر بعزل وزير الحربية ! وتعين مكانه محمود سامى البارودى .

وكان لهذا التقهقر السريع أثره فى نشر الدعوة العراقية وإضعاف هيبة الحكومة . ثم ما لبث البارودى أن استقال لخلافه مع الخديوى وتعين مكانه داود يكن باشا صهر الخديوى . فقامت ثورة الضباط بقيادة عرابى مرة أخرى وطلبوا عزل الوزارة بأكملها وتشكيل مجلس نواب . وسار عرابى على رأس قوة مكونة من ٢٥٠٠ جندي و ١٨ مدفعاً وأخذوا مكانهم فى ساحة عابدين ، وخلقهم عدد لا يحصى من الناس . فخرج لهم الخديوى ، وقامت بينه وبين عرابى مناقشة

طلب عرابي خلالها عزل الوزارة وتأليف وزارة جديدة ، ودعوة مجلس النواب للانعقاد ، وزيادة الجيش إلى ١٨٠٠٠ . وبعد أخذ ورد قبل الخديوي إسقاط الوزارة ، واتفق على دعوة شريف باشا لتشكيل الوزارة الجديدة ، فتشكلت وأعيد البارودي لوزارة الحربية . وقد أودى هذا الحادث بسلطة الخديوي وجعل السلطة كلها بيد الجيش .

وفي آخر يناير سنة ١٨٨٢ طلب مجلس النواب من الخديوي إسقاط وزارة شريف باشا للخلاف الناشئ بين الوزارة والمجلس حول الميزانية . فاستقال شريف باشا وتعين مكانه البارودي رئيساً للحكومة ، وجلس أحمد عرابي في كرسى نظارة الحربية . فكان أن رقى عدداً كبيراً من الضباط المصريين ، وقرر التخلص من سماهم « الحزب الشركي » . فشكل لجنة لفرز الضباط ، وأحال منهم ٦٠٠ ضابط شركي أو تركي إلى المعاش ، ونفى الباقين إلى السودان . ثم عاد وقرر التخلص من هؤلاء أيضاً ، فادعى أن بعضهم تكلم بشأنه بما لا يليق ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، وكان عددهم ٤٨ ضابطاً ، من بينهم عثمان رفقي باشا ناظر الحربية السابق ، وأودعهم سجن قشلاق قصر النيل . وعاملهم بالقسوة والغلظة . ثم أمر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمتهم ، فصدر الحكم عليهم بالنفي إلى أقصى السودان ، بدون أن يسمح للمتهمين بالدفاع عن أنفسهم .

فلما عرض الحكم على الخديوي ، أصدر قراره في ٩ يناير سنة

١٨٨٢ بتعديله إلى النفي خارج مصر دون تعيين السودان .
وعلى ذلك اشتد الجفاء بين العراقيين والخليوي ، وقرر
الوزراء دعوة مجلس النواب للنظر في أمر الخلاف . وفعلا
اجتمع الأعضاء ، وحاولوا التأثير على الخليوي لحمله على النزول عن
موقفه ، فرفض . وأخيراً رأى أن يوافق الخليوي على قرار المحكمة
العسكرية بشرط استقالة رئيس الوزارة فقط ويبقى سائر الوزراء
مكانهم . فوافق الخليوي على هذا الحل بعد تردد ، إلا أن مصطفى
باشا فهمى الذى عرضوا عليه رئاسة الوزارة لم يقبلها ، وبذلك عادت
المسألة إلى الأخذ والرد .

وأخيراً وافق الخليوي على بقاء الوزارة إلى أن تسنح الفرصة ،
ونفى الضباط المحكوم عليهم إلى سوريا ومنها إلى استانبول .



وقد تطورت الحوادث بعد ذلك في مصر تطوراً سريعاً ، واشتد
الجفاء بين الخليوي وعرابي باشا . وفي يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢
أطلق الأسطول الإنجليزي نيران مدافعه على الإسكندرية ، وفي يوم
١٥ سبتمبر منه دخلت القوات الإنجليزية مدينة القاهرة ، فقبضت
على عرابي باشا وبعض الزعماء ، وتقرر نفيهم ، بعد المحاكمة ، من
الأراضي المصرية .

الفصل التاسع

ختام

لا يزيد عدد الشراكسة في مصر — أو المصريين الذين ينتمون إلى أصل شركسى — عن بضعة مئات ، قد لا يتعدون الألف عدداً . وقد امتزج هؤلاء بالحياة المصرية امتزاجاً تاماً ، وأصبحوا مصريين قلباً وقالباً . وهم — مع قلة عددهم — يتميزون بنشاط زاهر ، فهم في طليعة العناصر العاملة المجاهدة في هذه البلاد . ومنهم الإداريون ، والعسكريون ، وأصحاب المهن الحرة . ولا شك أن مصر تفخر بانتساب مثل هؤلاء لها ، كما يفخرون هم بانتسابهم إلى وطنهم المحبوب : مصر .

ومن العائلات المصرية التي تنتمي إلى أصل شركسى : بيبرس ، وقانصوه ، وبكتاش وتيمور ، والبرديسى ، وذو الفقار ، ورستم ، وشركس ، وجانبك ، ولاشين ، ودمرداش ، وشيرين ، وقوصون ، وغيرها .

وفي القاهرة اليوم ، فضلاً عن ذلك ، عدد كبير من الطلاب الشراكسة الذين قدموا لتلقي العلم في معاهدها المختلفة من الأقطار المجاورة يربو على المائتين .



وفي سنة ١٩٣٢ تأسست بالقاهرة جمعية اسمها « جمعية الإخاء

الجر كسية « لنشر الثقافة والتعاون الأدبي والاجتماعي بين الشراكسة
ولمساعدة الضعفاء والمحتاجين منهم . وكان مؤسسها المرحوم عبد
الحميد بك غالب من خيرة الرجال ، وقد قام بترجمة كتاب « تاريخ
القوقاز » عن اللغة التركية وطبعه على نفقته الخاصة . وقد قامت
الجمعية في عهده بخدمات جليلة للطلاب ، وأقامت عدة احتفالات
ناجحة . ومن المؤسف أن نشاط هذه الجمعية قد توقف — أوكاد —
بعد وفاة مؤسسها . وحبذا لو تدارك القائمون بالأمر هذا الوضع ،
وأعادوا للجمعية رونقها ونشاطها القديم .

انتهى

كتب المؤلف

١ — الإسلام والحرية الفكرية

١٨٠ صفحة — والثمن ١٥ قرشاً

من أبوابه : الإسلام والحياة العقلية — الإسلام وحرية
الفكر — الإسلام وحرية المرأة — الإسلام وحرية القضاء —
تعاليم الإسلام في الفتح — المعاهدات الإسلامية . الخ ...

THE TRAGEDY OF A NATION

THE STORY OF THE CHERKESS

٦٤ صفحة على ورق ممتاز والثمن ٥ قروش

٢ — لهزه أمني — شركسي : نخرت عنهم قوم

٦٤ صفحة من القمطع المتوسط ، مزين بالرسوم ، والثمن

٥ قروش للطبعة العادية ، و ١٠ قروش للطبعة الممتازة .

تطلب هذه الكتب من المؤلف ، بشركة سوكوني فا كوم أويل ،

٦٢ شارع إبراهيم باشا ، القاهرة ، ومن المكتبات الشهيرة .

بصرى للمؤلف

١ - على بك الكبير

وعصره

رواية صادقة لعصر من العصور الخالدة في تاريخ مصر

٢ - نساء خالدا

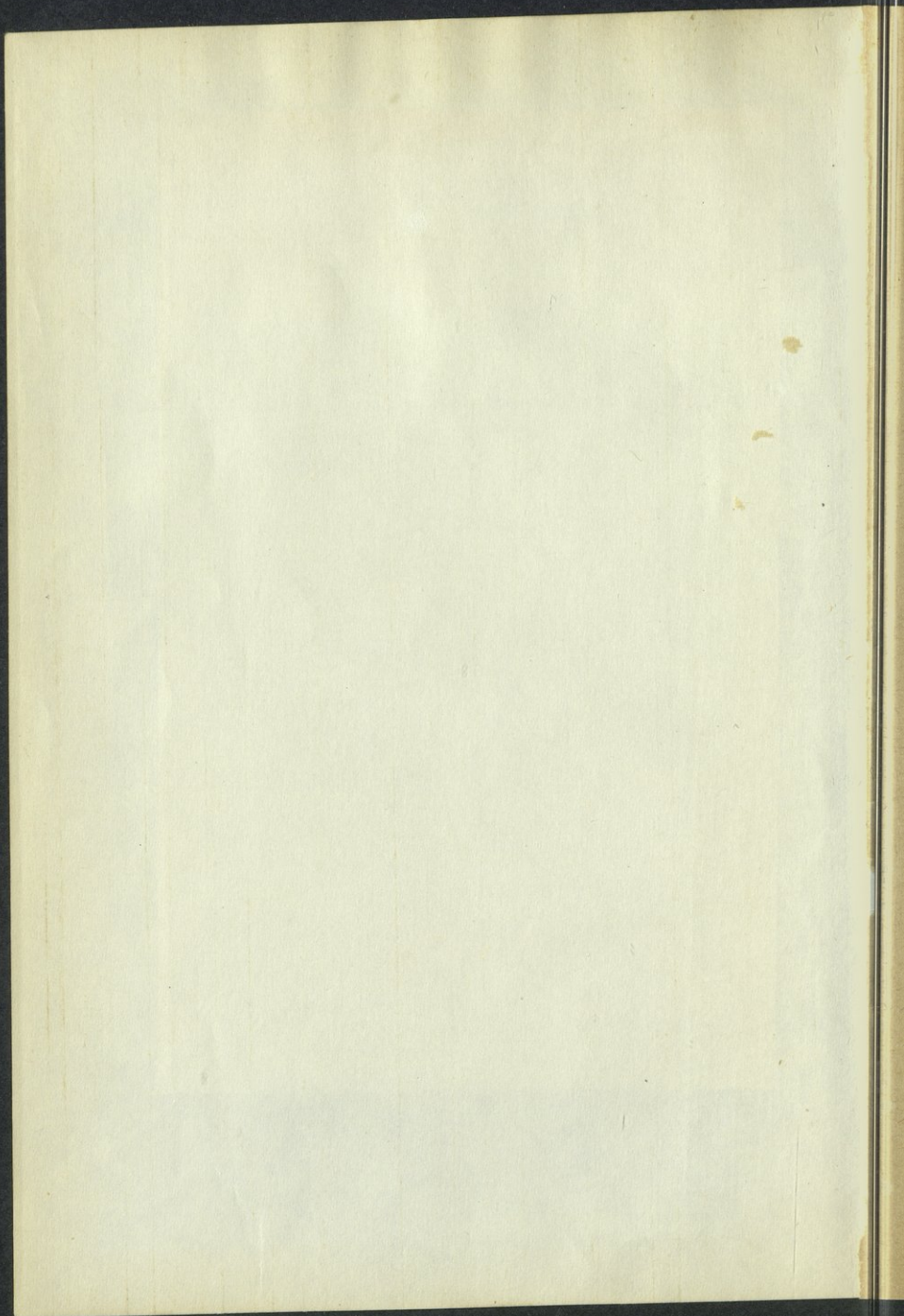
تراجم شائقة لأشهر نساء الشرق والغرب

٣ - جان

قصة من صميم القوقاز

استدراك

ورد في صفحة ٧ من هذا الكتاب أن اللغة التركسية
تدرس في القوقاز حتى سن العاشرة ، والصواب أنها
تدرس عشر سنوات .



DATE DUE

~~4 MAY 1987~~

962: R95mA

رشدی، راسم •

مصر والشبراكية، صفحات من تاريخ مصر
الحدث •

962

R95 mA

